Digitized by Birzeit University Library

4971
كلية بير زيت
١٢
BEERZEITH COLLEGE
PJ
7805.8
.L3
H38
1944
KPK

براهيم عبده

الحياة الثانية

A.F
A134.1

الناشر مكتبة الآداب بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة التوكل بالجماميز
١٩٤٤

Digitized by Birzeit University Library

« تلك يا بنى قصة أبيك ، ستعجبك يوم تشب عن الطوق ، وستغشاك سحابة من ألم لأن فيها لوناً من الكفاح المر ، فلا تبق على آلامك لأن فيها أيضاً لوناً من الانتصار الحلو . . . وإذا كان فيها بعض الخيبة يوم جرح قلب أبيك ، فان فيها العزاء كل العزاء حين عوضنا الله خيراً فيمن أنجبتك وهيأت لى بوجودك سعادة ما كنت أعرفها أو أقدرها .

إقرأ يابنى هذه القصة ولا تكره فيها أحداً ، فما عرف أبوك غير الحب ، ولا فطر إلا على المودة وعرفان الجميل ، ولا تكن قاسياً على من أساء ، فقد عرضت لك صنوفا من هذه القسوة لتتجنبها ، وصورت لك أشكالاً من طبائع الناس لتتخير أجملها .

إقرأ يابنى هذه القصة كلها حتى تشبع نفسك من معانيها ، ويطرب قلبك من توقيعها ، واضرب لأخيك

— وهل بابا كبير مثلك يا جدى ؟؟

ولما أحس الجد رغبة حفيده فى الكلام عن أبيه رأى فى حكاية قصة أبيه إرضاء لتلك النفس الحائرة، رأى فى تلك القصة صدى لكل ما فى الدنيا من عبر وما فى الحياة من متع ، واستجاب الشيخ إلى ما تمنته عليه أم صاحبنا وتجنب قصص الف ليلة وبدأ يقول . . .

٣

« كان أبوك يابنى فتى له من العمر إثنا عشر عاما يوم مات أبوه وأخلف له ميراثا ثقيلا : زوجة وأربعة من الأطفال، وكان يعول هؤلاء جميعا بما ورثه أبوه من مال وعقار ؛ وكان المال ثمانين جنيها حمراً ؛ وكان العقار بيتا أوقل عشة ذات حجرة واحدة يزينها فرن وينهق فيها حمار . »

« راح هذا الفتى الصغير يضرب بصدر الحياة قذائف عامرات ؛ يربّت على محن الزمن ويترضى قسوة العيش

ويستعطف بلاء الوجود ومضى هو وشريكه (الحمار) على هذه الحال عشرة من الأعوام يقوم كل صباح يحمّل شريكه (الخرج) فيه من القماش الأحمر والمشجر والأصفر مايجذب الفلاحين والفلاحات، ويلبس هو عمامته الخضراء ويروح الى القرى الصغيرة يبيع ما يتيسر له ثم يرجع فى المساء يحمل إدام البيت وقوت الحمار »

« وانى الحظ أباك وهو فى سن الشباب فشرع بما نال من عطف الله وثقة الناس ينشىء حانوتا صغيراً فى المدينة التى يقيم فيها، وخلت معاملاته من الغش والزور وأخذ هذا الحانوت الصغير ينتفخ على مدى الزمن ثم ينتفخ ليسع البضائع ويسع الزبون حتى شهر صاحبنا فى البلدة فأصبح علما أو كاد »

« ثم مضى العام يلاحق العام وأبوك يا بنى لا يودعه

Digitized by Birzeit University Library

حظه المجدود حتى نشدته رتب الدولة فأنعم عليه برتبة « البكوية » وأصبح التاجر ذو العمة الخضراء والمركوب الأحمر وصاحب الحمار عيناً من العيون يجالس المدير والحكمدار ، ويقعد أمامه أهله وعشيرته وأبناء بلدته مبالغين فى الاحترام ، وينزلون رغبته منزلا قويا من نفوسهم فلا يسأمون طلباته ولا يحسون فى أوامره النزوات ويسمتونه منهم المثل الأعلى موضعاً للتقدير والاعجاب ، ولم يكن الرجل محبوبا لماله أو لتقدير الحكومة والحكام إنما كان الرجل محبوبا لنفسه ، محبوبا لرجولته الصادقة عن المجون الراغبة فى الخير تسعى به إلى الناس طرا ، فلم يكن يبخل على فقير ولم يكن يشكل على معسر وهو منه المعين ، وقد كان يرى

Digitized by Birzeit University Library

خادمه يسرقه وينهبه فلا يسـلمه إلى القانون إنما كان يسرحه فضلا وإحسانا »

« ويشاء ربك أن تبسم له الدنيا ولا تسخر الأقدار وتقف الحياة ضاحكة لهذا الرجل تنفحه القبل وتذكر له الخيرات وتمشى فى ركابه تحدب عليه حدب الأم على طفلها ، وأخذ هو والحياة يتقارضان الخير بدالا ، هى تمده بمتعها وهو يمدها فى خدمة البائس والمحتاج »

« تنفست شرعة الحق فأضحى أبوك يحمل رتبة (الباشوية) فى الوقت الذى لم يكن فى الأمة ثلاثون من الباشوات ، ولكن الرجل هو هو لم يلفته جلال الرتبة وفخامة النياشين عن واجبه إزاء الأهل والناس فقد أخذ ينشىء هذه المظاهر خير تنشئة ويحبسها عن

الدلال ويكبت عنفوانها ويسترقها قبل أن تسترقه ، فزكت تجارته وأفلق فى ثرائه حتى أصبح أغنى العيون فى بلده »

« وفجأة انطفأت هذه الشعلة وقضت إلى ربها راضية وودعتها إلى مستقرها الأخير البلدة جميعها يتقدمها مندوب الخديو ورجال الحكومة فكان عظيما فى موته كما كان عظيما فى حياته »

« ولكن أخاك الأكبر لم يكن حصيفاً كما كان أبوه ولم يكن على شىء من ذكائه فقد كان شابا فارغ القلب من الحياة ، لذلك لم يقدر موقفه فراح إلى ملذات الدنيا نهماً يروى فيها ظمأة الشباب ، واستغرقته تلك النزوات التافهة فحاول أن ينفرد بالارث ولم يدخر مجهوداً إلا بذله لتحقيق هذه الغاية السخيفة ، ولما لم

يغنه إسعاف الفكر السقيم بما يريد رجع فى خيبة تتعثر ، ولم تقف الخيبة عنده وحده بل لحقت الأسرة جميعاً ، وهكذا يابنى لم يبق لك من حطام الدنيا إلا إرث الذكرى وإن هذا ليخفت ويموت إن لم تقم أنت عليه بالحدب والجد والاجتهاد ، واعلم ياصغيرى أن خير مايجب أن تعلم هو قول الشاعر :

العلم يرفع بيتاً لا عماد له
والجهل يهدم بيت العز والشرف

* * *

لم يدر صاحبنا كيف يعبر عن سروره وغبطته حين اكتنه هذه القصة وألم بها فقد تلمست فيها نفسه اللطيفة الشاعرة نوعاً من العزاء واستمدت من أشجانها

Digitized by Birzeit University Library

بعض الصبر واتخذتها مثلا فى الجهاد ، ولقد عرف لهذا الخطب فتبدد يأسه . ولم يكره فى القصة أخاه ، فصاحبنا لا يعرف الشر وأجمل من هذا أنه لا يفكر فيه ، ولا يكتمك أنه وهو يستمع إلى القصة زها كما يزهو كل طفل واعتز بأبيه فى صفاء نفسه ونقاء ضميره وبراءة سريرته لذلك يقسم بشرف والده حين يريد أن يثبت لك قوله أو يدفع عنه تهمة ، ويؤكد صاحبنا أنه ما كذب فى هذا القسم مرة واحدة

استمع صاحبنا إلى قصة أبيه وقد راقه فيها كل شىء وراقه أكثر منها بيت الشعر ، وحببه فى هذا البيت الجميل صدقه فى الحياة وتغلغله فى الحق وأنه صدى للعقل السليم والمنطق الصحيح ، وإنما الانسان ينجل مرعى الخير لنفسه ويقطع وثاق العبودية ويتشوف إلى

Digitized by Birzeit University Library

كشف مكنونات الحياة ويخترق آفاق الجمال ويدفع قوى الأرض لخدمته وقلوب الناس إلى محبته إذا تثقف عقله وهفهفت روحه وسما وجدانه

* * *

ليس فى الكتاب ما يشفى غلة صاحبنا وليس فى الكتاب ما يرفع البيوت ويقيم لها العمد . ولا يعلمك الكتاب إلا قليلا ولا ينهل الانسان فيه من الثقافة إلا بقدر محدود . وأم صاحبنا لا تعرف من أمور الحياة شيئا فليس لها رأى فى التعليم وليس لها على أبيها فى تربية ولدها وتثقيفه مشورة ، وثقافة الجد على ما يزعمون فرنسية صرفة حتى انه كان يجيد نظم القوافى الفرنسية كما كان يجيد نظمها فى العربية . ومدارس الحكومة فى طفولة صاحبنا كانت تستغرقها ثقافة انجليزية صرفة

وهذه يكرهها الشيخ لأنه لا يتذوقها ولا يهضمها فهو يربأ بحفيده أن يغترف من هذا المنهل الناضب ، وخير ما يرى هو معاهد الفرنسيين التى وصلت ثقافة الغرب بثقافة الشرق وأطبق العقلاء أنها المدارس الخليقة بالاعجاب والتقدير

* * *

أمضى صاحبنا فى معهد فرنسى (بالزيتون) حولين كاملين يقسم أنه ماذاق حرية العلم وحرية الحياة مثلما ذاقهما فى هذا المعهد الخطير . كان طفلا فى التاسعة من عمره والتحق بالمعهد راهباً تلك اللحية الكثة تتدلى على صدور المدرسين وهذه الثياب الطويلة يروحون بها ويغدون يخبّون فى جوخهم كما يخب الديك الرومى فى ريشه تتدلى من رقابهم ربطة بيضاء ناصعة البياض نقية

تأخذ فى الانفراط حتى تستوى على صدورهم كأنها الدروع الفضية ، وأحذيتهم فى أقدامهم يتأذى من وقعها التراب والحصى ، وهؤلاء فى مظاهرهم الخشنة كانوا يضمون فى صدورهم قلوبا رحيمة تبر بتلاميذهم وتحدب عليهم وتغرس فيهم بالرغبة حب العلم وحب الحياة ، وكانوا إلى تعليمهم يلهبون فيهم نزعات طيبات يزدلف اليها صاحبنا وفيه رغبة شديدة ، كانوا يلعبون مراحاً ويقيمون الحفلات المدرسية نزهة للنفس وانشراحاً للقلب ، وكانت حفلات الدين كثيرة يرفل فى أثنائها المعهد بهاء ورونقاً ، وقد كانت الطبيعة تغذى ذلك الروح بجمالها تفيض به على رياض المدرسة توشيها بأبدع الأزاهير وتطرزها بالورود والرياحين وكانت ابتسامات التلاميذ البريئة الساذجة تتألق على أفواههم الصريحة

تخجل نضارة الأزاهير والورود ، ويفنى جمال الطبيعة حيث يزهو جمال الحياة .

فى المدرسة الجميع أطفال ، التلاميذ أطفال صغار والأساتذة أطفال كبار وكلاهما يستمتع بالحياة البسامة الضاحكة يشعر بشعور واحد ويحس إحساساً واحداً رغبة فى الخير وإصغاء بالمودة .

وليس جمال الحياة فى شدتها ولا فى اعيائها إنما تلك حياة شاقة شديدة العناء ، وليس أجمل للانسان وأروح له من أن يكون مرسل النفس مطلق الروح فى متع الحياة ومسراتها رخى البال مستغرق الفكر فى سكرة هذه الحياة الراضية المطمئنة .

وكم يذكر صاحبنا بالاكبار بدء الدروس حين ترى التلاميذ وهم قيام يرتلون أنشودة حلوة طيبة يستفتحون

بها نهارهم المدرسى وقد أخذوها عن الانجيل تبركا وصلاة لله . ولعمره أنها المدرسة التى نفس فيها صاحبنا عن سورة فى الحق وسورة فى الحياة .

* * *

٥

لشدّ ما يؤلم النفس أن يشغلها الألم وقد كانت طليقة من قيود الهم ، وأحسب بعض الناس صادقا فيما يزعم أن الحياة حلم وأنها صور معروضة ، علينا اقتناؤها جميلها وقبيحها وليس علينا اختيارها كما تشاء رغباتنا ، وليس يشك عاقل أن مسرات الحياة وملذات العيش مهما يركب لها الانسان كل صعب وذلول ويصل حبالها الحلوة بحباله راجع منها كما يرجع الصائد فى يومه الممطر العبوس ، وإن الصدر المشروح لينقبض يوماً وإن القلب المفتوح

ليقفل حيناً وإن الوجه الضاحك لا بد أن تراه ساعة وهو عابس . ولشد ما يدهشك أن تجد نفوساً تقابلها عاصفة الألم فتنجلي منها ولا تبقى على كرب وتستقبل انقباضات الصدر فتحاورها وتحايلها حتى تروح همومها وتنفرط آلامها .

هؤلاء يطيبون للحياة ولكنهم يخطئون حين تأخذهم نزية من الكبرياء فيؤكدون لك أنهم بعيدون عن آلام الحياة وهموم العيش ، وإن عيونهم لتفضحهم وتكذبهم وإنهم لعمرى كالسحالى تسف التراب وترفع رءوسها عالية .

وليس بعض الناس لبعضهم إلا بعطفهم ومودتهم وضرورة الحياة وناموس الطبيعة يحثان على هذا العطف وتلك المودة فان افتقد إنسان عطف الانسان ومودته

Digitized by Birzeit University Library

وانحسر عنه حبه ورقته أصبح الفرد لذاته وردت له حريته ، وفقد مع الحرية أنس الرفيق وسلوة الانسان وعاش وحده لأشجانه ينفر منها فلا تعرض عنه ، بيد أن الله الذى برأ تلك النفس وحكم عليها هذا الحكم عاضها من الوحدة صدراً واسعاً ومنحها مع بلاء الزمن صبراً جميلا .

بدأت آلام صاحبنا حيث بدأ يحس الحياة ويرغب فيها ، ولم يكن صاحبنا يستعطف عليه أحداً فقد داهمته الهموم وهو فى مدرسته وجابهته أول محنة فى الحياة فصعّر لها فى البداءة وصفعها بعد لأى .

لا يريد صاحبنا أن يشكو لك آله وما قاست منهم أمه ولا يريد أن يظلمهم أو يفضحهم إنما يظلم الزمن فذلك أندى لنفسه وأروح لها ، وهو لا يريد

أن يشكو هذا الزمن أيضاً ففى الشكوى ضعف وهو السلاح المتعنت الذى تتكسر على قناته ملمات الزمن وقسوة الحياة .

إنه ليكذب نفسه ويقطع أوصال تاريخه إن لم يشك ولم يئن ففى الشكوى فرجة الهم وتخفيف الغصة وليس يشك صاحبنا أن كل مستمع لقصته سيتناول جزءاً من آلامه حتى تغيض همومه ويجد من المستمع حبيباً لنفسه شريكا له فى أشجانه .

تنكرت الحياة لأم صاحبنا وقد كانت خلواً من الشجون وعبث الزمن بها ولم تعبث هى به ؛ وأزلفت منها غصة العيش ومرارتها فقد بدد ولاة الأمر منها ثروتها وأقعدوها منهم مكان المحتاج وأسرفوا فى تنكرهم لها إسرافا فاجراً حبب اليها الموت ، ولم يتريث معها

الزمن لتستروح من مجرى الدموع طراوة العزاء إنما تكاثف عليها بوشيجه ليصوغها مدى العمر ألماً رفيعاً يملأ كأس الحياة .

ولما أوحشت الدنيا وغاضت متعها وأدبرت عن تلك الأم قلوب الأمس الرحيمة وأقبلت عليها قلوب اليوم السقيمة وافتقدت العطف من بين يديها ومن حولها شغفها حب الحياة لولدها الصغير فراحت الى الزمن القاسى تؤجر منه فرجة لها وتدفع الأجر دموعاً وأسى وتستجدى الدهر الشحيح ساعة من الماضى الرغيد فلا يواتيها الا بساعات مدموعة سخية العبرات ، تلك التى كانت إذا دبت على الأرض سعت الأرض وخيراتها فى ركابها ناضرات زاهرات ، وعاد كل ما يطوف بها ألما بئيسا لا يخف وشبحا مخيفاً لا يغيب وأصبح كل ما كان

حولها زكى النبت غزير الازهار سقيم الروح عديم الرجاء ، وما كانت تشعر أن المقدور يدخر لها فى بطون هذا الغيب المترامى الأطراف المحن والأرزاء تسيل على عمرها كما يسيل الماء من قمة الجبل الى مسير القدم .

راحت تلك الأم الرءوم تبيع من حليها لتكفى ولدها فى تعليمه وما كان الحلى بكاف ولدها الا سنتين أشرف بعدهما الألم مرة أخرى واهتاج فى الأم الحنين وذاعت فى أضالعها ذكريات الماضى الجميل وسال منها الدمع غربا وسحت عيونها غزيرة ومالت على ولدها تقبل فيه كل مكان وتربت عليه وتمسح على رأسه وتذكر فيه أباه وأيام أبيه ومجدها الذى طواه الزمن لما طوى الموت زوجها الطيب النبيل .

وجاء أباها الخاطبون يسألونه القرب ويطلبون بنته

Digitized by Birzeit University Library

وقد غدت بهجة كل خاطب وسائل ؛ وكانت أم صاحبنا في عنفوان شبابها أضافت لها الآلام نضرة جذابة الى ملاحتها الأولى ؛ وليس ينسى صاحبنا حيرة أمه لما أعلن جده رغبته في زواجها ؛ فلم يكن سهلا على الأم أن تفارق وحيدها ، متعتها في الحياة وسلوتها في الألم ، ولكنها مضت الى بيت زوجها بعد أن تعهد الجد حفيده وأسبل عليه شيئا من العناية والحنان .

تألم صاحبنا لفراق أمه ولكنه لم يحزن لزواجها من غير أبيه فقد رآها تتقلى على الألم في بيت جده ورأى الشيخ يصب غضبه على أمه وحدها فرضى بأن تتزوج أمه وتتحرر من هذا الرق وتصبح سيدة بيت مهما يكن شأنه فهو بيت تقر فيه عينها أكثر مما تقر في بيت أهلها ؛ وكم فرح صاحبنا حين زارته أمه لأول

مرة تحمل له أطايب الحلوى ضاحكة باسمة وهى ربة الدموع المهرقات .

* * *

٦

كان صاحبنا يتمنى على جده أثارة من حبه تعوضه القلب العطوف الذى راح منه ونأى عنه بيد أن هذا الرجل الخشن الذى مشت القسوة فيه لم يحن ولم يعطف بل قسا وأسرف فى قسوته حتى هلع منه صاحبنا وخافه فى اليقظة والغفلة ، وأغاظ الجد فى المعاملة واشتد فى القول وذوى صاحبنا ولما يمض على فراق أمه حول .

كان يلعب مرة فى حجرة من حجرات البيت بكرة من الجلد صغيرة كالليمونة وأخذ هو والكرة يتبادلان القفز يحاول بذراع كالجريد أن يضربها بالأرض لتصل

Digitized by Birzeit University Library

الى السقف ونجحت المحاولة إلا قليلا فان الكرة تنافرت مع السقف وتجاذبت مع سقف دولاب واستقرت هناك ، وفى غيبة الكرة وحشة على نفسه وثورة على مجال لعبه الظريف فتسلق سلما بجانبين رجاء الوصول إلى تلك الكرة الملعونة التى غضبت عليه من غير سبب وكان جده لا يقول إن للطفل متعا ليست للكبار وأن مجال الأطفال لعب ومرح ومجال الكبار جد وجهاد فضج وراعه لعب حفيده وصخب كيف لهذا الولد أن يلعب وسيد البيت موجود ؟ ونادى حفيده وفى صوته ما يؤذن بسوء المصير ، وراح أهل البيت يجوسون خلال البيت يفتشون عن هذا العفريت كما يسميه الجد الحنون !! ولما أعياهم التفتيش أعلنوا خيبتهم فأخرجت الأرض أثقالها وتحركت هذه الأثقال فى شخص هذا الجد البغيض ودعا صاحبنا أن انخسفى ياأرض بمن فيك

وابلعى ما عليك قبل أن يجل الخطب ويكشف أمرى ولـكن الأرض لم تنخسف ولم تبلع ما عليها ! ! وانحنى الجد على الدولاب وقبض على حفيده ثم أمسكه من وسطه وحمـله معلقاً بين السقف والأرض ، وتقف الذاكرة بصاحبنا فقد أغمى عليه إذ ذاك ولا يذكر إلا اليوم الثانى الذى قام فـيه استعداداً للذهاب إلى المدرسة كما هى عادة كل يوم .

وكان صاحبنا يتستر على هذه القسوة التى يلقاها من جده ومن يلوذ بجده حين تدلف اليه أمه سائلة عليه ، كان يجلس اليها يسرد عليها ما فى حياته من رغد ونعيم ، كان يكذب على أمه فى هذه الناحية من الحديث وما كان يدفعه الى هذا الـكذب حب الـكذب إنما كان يرفق بهذه الأم الطيبة القلب التى فارقته مرغمة فلم يكن يرغب فى أن يزيد من آلامها فكان يطوى عنها حالته المؤلمة . ولما

Digitized by Birzeit University Library

تبرحه راجعة إلى بيتها يضيفه الهم ويلحقه الغم حتى تهتاج نفسه الرقيقة وجداً ثم حثيثا فلا يحس إلا عبراته المسفوحة تتهطل على عظمتى خديه فيسر وسادته الوفية تلك الدموع ويذكر فى عبراته قصة أبيه ثم يعطف على حالته السيئة فلا يجد من نفسه إلا فتى مهيض الجانب مكسور الخاطر .

وجاء عليه العيد ولا يحس العيد إلا الأطفال ولكن صاحبنا لم يلبس كسوة العيد يفاخر بها أنداده ويفرح بها كما يفرح لداته . ولم يعطَ (عدية) العيد كما يعطى رفقاؤه . وكم تحسر وكم تألم . لا أب ولا أم ولا حنون ولا رحيم فقد حرم عطف الأب وحنان الأم ، أيستوى فى الناس من فى النور ومن فى الظلام . من فى الجنة ومن في النار . من تحدب عليه قلوب الأطهار ومن تقسو عليه نفوس الأشرار ؟ إن الحياة فارغة سقيمة

وإن العمر عبوس كالح إن حرم فيهما الأنسان عطف الحبيب ورقته ، ومن هو حبيبك ؟؟ هو أبوك وأمك فان افتقد الأنسان — صغيراً أو كبيراً — هذين الروحين ضجت الملائكة ورعدت السماء وقالت له الحياة لقد فقدت يا إنسان عطف الانسان. وهكذا يصبح حال اليتيم يتنسم الشفقة ويرجو العطف ولا يطمع من الناس إلا بقدر محدود من الحنان إن حمل ناس اليوم فى جنباتهم حناناً أو ضموا بين صدورهم قلوباً تعطف وتلين .

صاحبنا يقول هذا وهو يبكى وقد بكى من قبل عشرين عاماً إنما هو يودع قرطاسه ماشاء من الدموع ، يبكى حظه فى الطفولة والصغر وقد بكى حتى جفت مآقيه فما تبض اليوم بقطرة .

وحياة الانسان طفولة وشباب ورجولة وكهولة ، ولكل من هذه المراحل الأربع حياة ، وقد فقد

Digitized by Birzeit University Library

صاحبنا لذة الطفولة فكان يعيش شاباوهو طفل وستحسه رجلا وهو شاب . ولم تمهله الحياة ليعطى عيش الصغر حقه وها هى ذى تنقله من ربيع الزمن وتخطو به مسرعة وتحرمه لذة الربيع ولذة الحياة .

* * *

غشت الكآبة كيان صاحبنا واحتوت جسده ووجدانه وبرح به لاعج الهم وأصبحت الحياة وحشة والعيش حزناً وبدأ يحس الألم إذا أصبح أو أمسى ، وخرج مع كل نفس من أنفاسه أثر الشكوى فتهوشت مشاعره وصدف عن أهله وكره فيهم الوجود . واضطربت أخلاقه فكان فى عراك دائم مع روحه ونفسه فضعف تحايله على الحياة ولم يستمرىء العيش مع جده وفى أحضان بيته الثقيل . وقد مزقه التفكير فاكان ينام إلا غراراً ، ونفره الضرب والشتم والتعيير من أهله ومن الناس فانزوى

طوال وقته يفكر فى الخلاص . أيهرب من البيت إلى بلد أبيه حيث يعيش أخوته ؟ ولكنه يعلم تاريخ إخوته وقسوتهم عليه ، أيروح إلى أمه فى بيت زوجها وفى ذلك تصغير لكرامته ؟ أيموت ويستريح ؟ ولو فعل هذه الفعلة فلن يعفو على الزمن ألم أمه ولن يبيد .

أخذت هذه الخواطر المريرة تتفاعل فى نفس صاحبنا ولما تنفس عنه مرة ، وهذا الجسد الصغير وهذه النفس الطفلة لاتتحمل كل هذا العناء وليس من شئونها كل هذا التفكير بيد ان الله أرادها على هذه الحيرة فلله مايريد.

واستعذب الزمن الألم فى هذا الروح الطليق فلم يعفه من آلام الجسم بعد آلام النفس فمرض صاحبنا ، ولم يغنه غير أمه التى حملته اليها تطبيبه وتسأل الله فيه الرجاء ، وأجمع الاطباء أن صاحبنا لن تعود اليه قواه كاملة إلا إذا رحل الى بلد جاف الهواء

اللهم غفرانك ورحمتك ! من أين لصاحبنا المال ليستوى فى بلد جاف ؟ ومن ذا الذى يحمل مشقة التمريض غير أمه وهـذه الأم لا تملك من نفسها نفعاً لولدها فى غير أحضانها ؟

سألوا الطبيب دواء غير السفر وتغيير الهواء فأكد الطبيب أن ليس لصاحبنا الفقير طب غـير السفر إلى بلد جاف الهـواء .

***

٧

لا يعرف صاحبنا كيف وفق إلى بلد تبرأ فيه آلام جسمه وآلام نفسه ، ولا يذكر صاحبنا كيف ودع أمه ولا كيف ركب قطار المساء برفقة عمه وأسرة عمه ، ولا يدرى كيف نام ليلته فى القطار ولا كيف أصبح فى الأقصر ولا كيف مضى من الأقصر الى الشلال إنمـا

Digitized by Birzeit University Library

يذكر السفينة وهى تقلع بهم إلى حلفا ، وهو لا يدرى كيف أمضى يومين فى القطار من حلفا إلى الخرطوم على أنه يذكر وصول القطار الى عاصمة السودان وقد شرعت سجوف الليل تهبط وتلبس المدينة رداء من الظامة ، ويذكر أنه بات هذه الليلة فى بيت عمه وقد بعث الليل فى نفسه شعور الرهبة والاجلال فلزم مكانه والأسرة هاجعة حتى استيقظ الصبح وطفقت الحياة تدب فى أوصال المدينة .

مشى صاحبنا فى قصته حثيثاً ولكنه يقف بك فى آخر بلاد المسلمين كما يسميها النساء فى مصر . يقف كثيراً وفى كل موقف لذة وفى كل موقف حياة . ولا يكتمك أنه يحب السودان وأنه يبغضه ، وأنه يرغب فيه حيناً ويرغب عنه حيناً ، وفى حبه وبغضه وفى ميله اليه ورغبته عنه لذة وحياة .

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

وقد رأى صاحبنا فى السودان حياة دون الحياة فى مصر ولكنه شغف بهذه الحياة الجديدة وطفق ينشد فيها عهداً سعيداً . وليس يشك أنه صفت له الحياة ورفق به الزمن .

قضى سنتين فى الخرطوم هما الحياة فى سنتين . وعهد الحياة فى السودان يثير أشجانه ويستفتح مغالق التفاته وإعجابه ولا يمر به كاللمحة العابرة فهو عهد الحب وعهد الجمال وعهد الصبى والطهر تجمعت فيه أسباب الخير ليشربها الصبى كؤوسا مترعة .

وللمصرى على السودان لهفة وفيه اليه حنين ، وله فيه قربى الدم ووحدة الدين ، وصاحبنا يفوت هذا الوتر فقد ضربت عليه الطبيعة وجماع ما تقول أن ليس هناك مصر ولا سودان إنما هناك نيل ينبع ونيل يصب ، أما صاحبنا فله فى السودان أكثر مما لك وله فيه ذكريات

ليست من شئونك : له قلب تفتح ونفس ألهبت وضمير أرهف .

حنانيك بلاد الحب فما شدة الحر فيك إلا إواراً للحب وما سحّت سماؤك إلا إهلالا للخيال والشعر .

حنانيك بلاد الحب فما غرد طير إلا بكيناك ، وما زلفت الينا مسالك مائك الا بالخير ذكرناك .

وصاحبنا الذى عاش حينا تحت سمائك وتوله فى أرضك وبين حناياك ذاق النعيم ، أيبكيك أم يحييك ؟ وهم يقولون حرمناك التحية فهل يحرمونه الدموع ؟

يميناً لقيت فيك الحب وعرفت فيك الحب وحملت معى فى الأوبة ذكرى الحب واليوم أودع الحبيب فهل أودع مع الحبيب مصدر الحبيب ؟ ولكنه فرع وأنت الأصل وكم تذوى فروع والأصل دائم ؟

* * *

Digitized by Birzeit University Library

٨

لم يكن يدرى صاحبنا كيف يحدثنا عن قصة السودان ومن أين يأخذها وقصة صاحبنا فى الخرطوم حلقة ليس لها طرف .

طابت نفس الصبى واستراح وجدانه وشفى من السقام ومن الهزال واجتمع بلداته من أبناء المصريين واحتفى به هؤلاء وأخلصوا له فى الحفاوة وأخذ يلهو لهوهم ويقتعد الرمل كما يقعدون ويسعى حافيا كما يسعون ويروح معهم ويغدو رخى البال ليس به كُرب . وقد وقفوه على مألوف العادات ومتناول الألفاظ التى يكثر استعمالها بين السودانيين والمصريين . واصطفى صاحبنا من بين هؤلاء وهؤلاء (فلاناً) يكبره فى السن ويقربه فى الروح ، وكان فلان هذا شاباً صغيراً يدرس فى كلية غردون وهى كلية لا تحمل معنى لفظها كقفص التفريخ

تخرج الموظفين للوظيفة ؛ ولا ينهلون فيها علماً وإنما ينهلون فيها بسائط العلوم ، وزى التلاميذ يتناسب مع كليتهم الفخمة ، كانوا يزدلفون إليها أسراباً وآحاداً يلبسون العمامة الحلزونية البيضاء وينتعلون (المراكيب) الحمراء ويدخلون فى قفاطينهم من رقابهم الى كعابهم .

ولا يذكر صاحبنا من حياة الدهماء فى السودان إلا زواجهم وطريقهم فى الزواج وأحزانهم وطريقهم فى فى إعلان الحزن ؛ ويذكر أنه شهد ليالى الزواج السبع فروّعه أن لقى فى محافلهم القسوة واللين يجتمعان ؛ ويذكر أنه رأى الخطيب الشاب يمتطى صهوة جواده قابضاً على سوطه بيده لافاً جسمه فى ثوب لفاً فيه شىء من الجمال وقد بدأت تسير على مقربة منه عربة من غير سقف تحمل جماعة من المغنيات السودانيات يغنين بنغماتهن

Digitized by Birzeit University Library

المشجية ويضربن على الدلوكة (١) وأجمل ما فى أغانيهن (الليلة العديل والزين) (٢) ويسرفن فى غناء هذه القطعة وهى درة أغانيهن يرتلنها وهن سافرات عاريات أنصاف أجسادهن العليا وقد سترن النصف الأسفل بثوب عادى من النسيج ملفوف حول وسطهن وواصل الى ما تحت ركبهن قليلا ، ويحوط عربة المغنيات الجميلات فتيان فى مقتبل أعمارهم يتنافسون على من فى العربة من الغيد الكواعب ولا ينال إحداهن إلا فتى ينزع رداءه ويقف عارى الجسد إلا من سرواله ويتحمل ضربات السوط من العروس ضربات قد تسيل منها دماؤه فان كظم ألمه وتحمل الضربات نال من يهوى وصاح (أنا أخو البنات عشرة) (٣) وعلى الزوج أن يكر بجواده ويفر بحيث لا يرى الناس على أعقابه غير الأتربة مثارة تسد

---

(١) الدلوكة هى الطبلة (٢) الليلة الفرح والهناء (٣) أنا الفتى الشجاع

الحلوق وتصيح الفتيات لهـذه الضجة الفارغة قائلات (كَـدِى يامّـة) [١] وهن يقلن هذه الجملة وفى صوتهن رخامة تعبث بقلوب الفتيان .

وفى الصباح يجتمع النسوة فى بيت العروس ليضربن (الدلوكة) وهن والمتفرجون من أصدقاء العروس يكون نصف دائرة تقف وسطها إحدى الفتيات ترقص رقصة غاية فى الرشاقة والأبداع . تميل برأسها إلى الوراء حتى تكاد تصل رأسها بالقدم وقد انسدل شعرها وهو مضفور مائة من الضفائر ويحسب الرائى ضفائر الشعر أرق من الخيط وقد زينته (بالحيحى) وهى خيوط حمراء قائمة ممتدة فى وسط الرأس ومنتهية بقلائد من ذهب وتدور الراقصة على من حولها وتقف حيال من يعجبها من الفتيان وتهز شعرها مرتين أو ثلاثاً حتى تلمس رأسها صدر معجبها

---

(١) كيقولنا هكذا يكون الرجال

ويتصل الرأس بالصدر وتهتاج نفس الفتى بتلك الراقصة المغرية فيخرج من الصفوف وينهال عليه العروس بسياطه المهرقة وتزغرد النساء فرحا وتشجيعا لهذا الفتى المضروب

ويذكر الصبي نحيب النساء وعويلهن إذا قضى عزيز عليهن ، يذكر فيهن المعولات القافزات عن الأرض أقداماً ، ويذكر عزاء الجيران ويذكر أنه ضحك من هذا العزاء بينه وبين نفسه . تقبل المرأة على التى قضى عزيزها فتهز رأسها هزاً عنيفاً متوالياً وتبكى فوق هذا الرأس بدموع محرقات .

يذكر صاحبنا كل هذا ويذكر أكثر منه ، يذكر أنه عرف فى السودان طرفى الحياة ، عرف فيه أتراح الناس وأفراحهم وشعر أيضاً أنه الحح فى معرفة الحياة أكثر مما عرف فما أفاده إلحاحه واجتهاده ورجع إلى حيث بدأ وعلم أن الحياة فرح يوما وترح يوما آخر .

Digitized by Birzeit University Library

٩

صاحبنا يقص عليك أجمل القصص بما أوحت إليه المصادفة : وهو لا يعرف إن كانت هذه المصادفة جميلة أو قبيحة ، وهو لا يريد أن ينعتها بالخير ولا بالشر : ولا يدرى أكانت هذه مصادفة له أم كان هو مصادفة لها ، بيد أنه يحس أنها كانت مصادفة غريبة عليه : وهو لا يذكر يوم هذه المصادفة ولا يعلم فى أى شهر ولا فى أى عام كانت وأكبر الظن عنده أنها وقعت له فى السنة الثالثة من الحلقة الثانية .

اجتمع برفاقه فى ساعة الأصيل وكان بين الرفاق (فلان) وفلان هذا كبير الرفاق وأرجحهم عقلا وأسدهم رأيا وأكثرهم إحساساً بالحياة ، ورأى فلان أن يزوروا جميعاً بيت صديق لهم هو ابن لتاجر فى الخرطوم ولم يكن صاحبنا يعلم عنه شيئاً : وحبذ الصبيان رأى فلان

Digitized by Birzeit University Library

ومضوا خفافا إلى هذا البيت ؛ وكان للرفاق اتصال وثيق بصديقهم صاحب البيت ، وكان له إخوة وأخوات وهؤلاء أيضاً — ذكوراً وإناثا — كان لهم اتصال بالرفاق إلا صاحبنا فكان غريبا بينهم إذا روعيت صلة هؤلاء بهؤلاء ، وكان الزائرون أطفالا إلا فلانا فكان يكبرهم سنا ، وكانوا جميعا حفاة الأقدام فالأرض مرمولة يسوخ فيها القدم فلم يكن لهؤلاء أن ينتعلوا إلا صاحبنا فلم يكن مثلهم يسعى حافيا ولذا كان بينهم ظاهراً لنظافة ثيابه وانتعاله الحذاء .

ودخلوا إلى فناء واسع كأنه حلبة سباق ، وكان صاحبنا يقرأ اللطائف المصورة فى غنى عن الفناء ومن فى الفناء حتى سمع صوتا يسأله عما يقرأ ، وكان الصوت فيه عذوبة وطفولة تتخلله الثاء ويكثر فيه التصفير وكانت الثاء التى تقوم مقام السين النشاز الوحيد فى هذا الصوت

Digitized by Birzeit University Library

الرخيم ، ولم يكن الصوت للبنت الصغيرة إنما كان الصوت صدى لوحى فى البنت رقيق الهتاف ، ونظر صاحبنا الى السائلة يمد لها الجواب وقد صعد إلى وجهه كل ما فى جسمه من دم ، وكان خجله عظيما فاستعسر عليه القول وهو لم يعتد مثل هذه المفاجآت بل لم يحادث فى عمره بنتا غير بنات البيت ، وبنات البيت عليه ثقيلات

ولما أصابه العى واحتبس عليه اللفظ ناول البنت اللطائف المصورة كالجبان يخاف أن تمسه أو يمسها كأنها خطر وهى فى نظره القصير من حور الجنان !

ليس يشك أنه نظر اليها وحدق فيها وأسرف فى النظر اليها ولم يمس فى نظراته جسمها فقد كان الصبى صغيراً لا يعرف جمال الجسم ولا حور العيون ، ولم تكن البنت تدعو النظر اليها فقد كانت صغيرة ولا تستأهل إعجاب الصغار ولا الكبار ، بيد أن صاحبنا

Digitized by Birzeit University Library

يزعم أن حديث البنت له ترك فى نفسه أثراً حبيبه فى البنت وحديثها .

راعها من الصبي تلك النظرات فمجبت لها أولا ثم خجلت منها ثانيا وطفق الدم إلى وجنتيها ، وكان وجه ووجه ، وكانت عين وعين ، وكان قلب وقلب ، وكانت ساعة ليس لها نظير . !

* * *

١٠

صاحبنا يزعم أن قد كان عندهم فى البيت طباخ ولولا أن لهذا الطباخ شأنا فى قصة صاحبنا لما ذكره الصبي حتى لا تظن أن فى ذكر الطباخ نوعا من التيه أو إعلانا بالثراء ، وهذا العامل يجنبك منه طول القامة وامتلاء الجسم ولعله أخطأ الوظيفة وأساء الاختيار فان صناعة الجلاد أو الشناق أوفق له من الطهى وشئون

المطبخ ، على أن لهـذا الطباخ دوراً فى الحيـاة كما أن لصبينا دوراً ، هو أسـود قاتم السواد جاحظ العينين شديد الجحوظ إلا أنه يحب ويعشق وهو لين فى حبه عطوف على حبيبته .

رأى الطباخ من صاحبنا مرحا ووجها ضاحكا فشغفته هذه النفس الطروب وقد أدرك أن لصاحبنا علمـا بالـكتابة والقراءة وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ فوصل حباله بحبال الصبى ، وكان إذا رجع من السوق يحمل شئون البيت أتى لصاحبنا بالهدايا، أتى له (بالدوم) (والنبق) وكان الصبى مغرما بهذا الدوم وهـذا النبق فأحب من الطباخ هـذا العطف وسره أن يرى فى هذا الأسود الغليظ قلبا أبيض رقيقا ، وإن الطباخ لم يكن يعطف من غير سبب فقد كلف صاحبنـا أن يكتب له كتبا غرامية يرسلها إلى حبيبته فى كسلا ، ولم

Digitized by Birzeit University Library

يكن الصبي يسأم هذه الكتابة بل كان يتفنن فيها وينمق في معانيها ويبدعها أيما إبداع .

ولاحظ عم صاحبنا الصداقة التي بين الصبي وبين الطباخ وشقت عليه هذه الصداقة ولم يكن يخاف منها سوء الأخلاق أو سوء المصير إنما كان لا يعجبه أن تنشأ صداقة بين الصبي والطباخ وأن ترفع الكلفة بين الناس وقد جعلهم الله درجات فأنب صاحبنا على انفراد وأسرف في الوعظ والدرس وكان صاحبنا يضحك بينه وبين نفسه من هذا العم الأرستقراطي وقد علم الصبي أن دافع هذه الصداقة لم يكن الدوم ولا النبق ولا الكتابة ولا الرسائل ، إنما نشأت الصداقة بينهما مع هذا الفارق في السن وفي العقل وفي الدرجات بأيحاء من النفس ودافع من الوجدان : كلاهما يحب وكلاهما يهوى فهما صديقان في عواطفهما مهما تتفاوت الدرجات .

Digitized by Birzeit University Library

لايعلم العم وليس من المعقول أن يعلم أن الناس لبعضهم سادة وخدم فقد نشأ وتعلم فى جو مثقل بالتقاليد مشبع بالرسميات .

وعجيب أن يشعر بعض النفوس أن من الجناية أن يتبسط أنسان مع نفس أقل منه قيمة فى الوجود ولعل غباء هذا البعض يريد أن يسرق منه جزءاً من متعه فان من متع الحياة ألا ينأى الأنسان عن شىء فى الحياة ، ولايود الناس أن يكونوا على غرار واحد فيقولون هناك خاصة وعامة وهناك سيد وتابع وينسى السادة أن الله فطرهم جميعاً سواء ...

أليسوا جميعاً من طينة واحدة ومن معدن واحد مهما تختلف جبلّة الطين وتتباين أنواع المعادن ؟ وإذا نأى السادة عن الأتباع ألا ترخص قيمة هؤلاء وهؤلاء ؟ وأولئك الخاصة ألا يكون وجودهم سقيما حين يترفعون

عمن دونهم فى العقل والثراء ؟ وأولئك العامة ألا يقصر نظرهم وتحد غاياتهم حين تقف بهم الفوارق حيث هم واقفون ؟ أليس أروح للحقيقة وأندى للواقع أن تمحى من الوجود لفظتا سيد وخادم ويقال ظالم ومظلوم ؟

* * *

١١

فى الخرطوم ناد يختلف إليه الموظفون المصريون كل مساء ؛ ولم يكن النادى موفقا كما كان يعتقد الناس ويتوهم الموظفون فقد كان النادى فارغا من كل شىء يسر النفوس الرفيعة الشاعرة ، لم يكن فيه حجرة للمطالعة ولم يكن فيه مكان لرياضة الجسم ، كان فيه خمر وقهوة ولا يطوى عنك صاحبنا أن قد كان يلعب فيه الموظفون الميسر حتى يصبحوا أو يضحوا وكان فيه مسرح يمثلون عليه بعض الروايات وقد ساهم الصبى فى

إحداها ، وكانت ليلة التمثيل ليلة جميلة . أقبل الناس فيها إقبالا كبيراً حتى غص بهم المكان ، وكانت سميرة أو — ثميرة كما تنطق هى اسمها — بين الحاضرين ولا يكذبك صاحبنا أنه فرح لوجودها وراقه أن أسرعت إليه مسلمة وقد هش لها واضطرب ، وكلمها وارتبك ، وأخذت عليه هـذا الارتباك ولم يعجبها منه أن يخافها ولكنها لم تكن تدرى أن لهذا الاضطراب سبباً فهى صغيرة لم تخرج من الأرض بعد ! وفى الحق إنها كانت تضطرب لاضطرابه وترتبك لارتباكه .

أمسكا بأهداب الحديث مـدة قصيرة حتى وافاهم الفتيان والفتيات وأحاطوا بصاحبنا يستمعون لأحاديثه ويستمرئون نكاته اللطيفة وينتظرون له النجاح فى دوره الذى يزعم أنه نخم بين الأدوار ، ولم يكن واحد من الواقفين يحس ما بين سميرة وصاحبنا إلا فلان فقد اعتاد

Digitized by Birzeit University Library

أن يستمع إلى الصبي وهو يحدثه مراراً عن سميرة وظرف سميرة وثاء سميرة . وكان صاحبنا يختلق الحديث عنها اختلاقاً إذا ما انفرد بفلان ، وفلان يستمع ويستمع حتى يضج بالشكوى أو يثلثهم الحظ السيء بثقيل فينقطع الحديث ويقف الخيال !

وزعم بعضهم أن من الفتيان من هو أبرع في التمثيل من صاحبنا وزعم البعض الآخر أن ليس بين أقرانه من يبزه في هذا الدور وأثار هذا البعض وهذا البعض ضجة من غير نتيجة فستار المسرح سيرفع بعد ساعة وليس بين الحاضرين كباراً أو صغاراً من يستطيع أن يحفظ هذا الدور الطويل في ساعة لا تغنيه في الحفظ فكيف بالأجادة ؟ وقد تفوقت سميرة على المدافعين وأسرفت في دفاعها عن صاحبنا إسرافا فيه شيء من الوفاء وكثير من اليقين

وكان صاحبنا يختلف إليها روحا طوافا وفى صحبته فلان ، وكان فلان على بينة من أمر صاحبنا ومن أمر هواه ، وكان يعلم من أمر سميرة مثلما يعلم من أمر الصبى ويعلم أكثر من هذا ، يعلم أن هذين الطفلين الهاذيين سيمر بهما الزمن سريعا وسيثمر هذا الحب الذى نبت فى قلبيهما طفلين صغيرين وأنهما سيتبادلانه يافعين ، وكان يقف من الاثنين موقفا صريحا ، يحدب عليهما ويفسح لهما سبيل التقابل وما كانا يفهمان معنى المقابلة! وأخذ يجد فى توثيق هذه العلاقة حتى شغفت سميرة بصاحبنا ونسيت كل الصحاب إلا هذا الصاحب .

وكان الصبى يسعى إليها وهو فى هزة المرح الطروب يودع خياله ما شاء من التمنى ، كان يؤمن أنها ستراه ويؤكد أنها ستسر من رؤيته ويرجح أنه سيضطرب ويخجل ، بيد أنه كان يمضى اليها على جناح الأمل

والرجاء ، كان يدفعه الشوق الى الانتقال اليها وكانت هى تطلب نظراته وأحاديثه فتواتيها خفاقة مضطربة وما كانا يفهمان الذى يثور فى نفسيهما وما يعبث بشعورهما وما يرود قلبيهما ولو أنصتا قليلا أو تعقلا بعض الشىء لعلما أنه الحب البرىء الساذج الذى يسعدهما بالحياة نفسا ويقربهما من الوجود علما ويدنيهما من الطبيعة فهما

وكان الصبى يقضى فى بيت سميرة الآصال العذاب وزلفا من الليل يشارك اللاعبين ألعابهم الظريفة ؛ وتسفر معارك اللعب عن خصام البعض مع البعض ، وكان لصاحبنا مكانة خاصة بين رفقائه جميعا فهو اكثرهم تفاديا للخصام وأشدهم رغبة فى المرح ، وكانت خفة روحه خير بلسم لما ينشأ من عراك أو خصام فكان وسيطا للخير بين المتخاصمين يصلح ما بينهم بحسن

السبك وظرف الحديث ينكت مع البعض فيضحك البعض وفى الضحك فرجة الألم وسكون الهياج فضحكاتهم كلها براءة وطهر تصدر عن قلوب سليمة لم تدنسها الحياة المغرضة ، وفى ضحكاتهم إصغاء الى المرح ورغبة فى السرور .

وكانت هذه العواصف الصبيانية تمر سراعا ولم تكن عنيفة ولا ملحة ومهما أسرف الأطفال فى آلامهم وأحزانهم وغلوا فى عراكهم وخصامهم فسرعتهم الى النسيان كسرعتهم إلى الغضب ، ويحسب بعض الناس أن من الأطفال من ينشأ فيه الشر وهو فى ضمير الغيب فاذا ما خرج إلى الحياة وامتاز فى زحمة الوجود لابسه هذا الشر فى عمره . بيد أن الله برأ الأطفال أطهاراً أخياراً وجنبهم السوء والشر ، إنما هى الحياة تصوغ الناس فتطبع النفوس الضعيفة بالشر وتهزمها النفوس

Digitized by Birzeit University Library

القوية فلا تلابسها سوءة ولاضغينة .

* * *

١٢

كان المصريون فى السودان أسرة واحدة يتزاورون كل يوم فما كنت تجد سيدة تستقر فى بيتها مرة فى الشهر وكن يجتمعن كل مساء عند إحداهن وكن لا يفرقن كثيراً بين مراكزهن الاجتماعية فالغنية تزور الفقيرة والفقيرة تزور الغنية أيضا وكان هذا الروح السامى يبعث فيهن المودة والاخلاص ، فاذا مرضت إحداهن خفت اليها صاحباتها جميعا وإذا ولدت إحداهن شعرت الخرطوم كلها أن فلانة قد ولدت وأن فلاناً قد أنجب طفلا أوطفلة ، وكان هذا الروح أيضاً ساريا بين الرجال فكانوا يجتمعون فى ناديهم يمدون المحتاج منهم ويواسون البائس فيهم ويشاطرون السعيد حسن الرفاء .

Digitized by Birzeit University Library

كانوا كذلك سواء رضوا أو لم يرضوا وكانوا أكثر من هذا ، كان منهم التجار وتجارتهم رائجة وكان منهم الصناع وصناعتهم نافقة ، كما كان منهم الأطباء والمحامون وشهد صاحبنا أكثر من هذا ومن هذا . شهد المصريين في أروع مظاهرهم ، مات أحدهم وكان فقيرا إلا من وظيفته ولم يخلف لزوجته وولديه ما يعينهم على الحياة فقامت وفود منهم وأبت أن يضام هذا البيت وأخذت تجمع إعانة وإعانة ومضى على جمع الأعانات شهر فكان جماع ما حصلوا عليه ألفاً من الجنيهات . واستلمت الزوجة ماقدم لها المصريون وأقامت بين ظهرانيهم ردحا من الزمن وعوضها الله في جميعتها قلوب الجميع تعطف عليها عطف الأم على صغيرها .

وكانت الخرطوم مقسمة الى ثلاثة أقسام وروعيت في هذه القسمة مكانة الحكام والمحكومين ، أحد

Digitized by Birzeit University Library

الأقسام يطل على النيل وشيدت دوره من طبقات ومنع أوساط الناس سكنى هذه الدور ، وفى وسطها شيد قصر الحاكم العام تحيط به حديقة فخمة احتوت ما فى الدنيا من فاكهة وأزهار ومدت الحديقة إلى الخرطوم ألسنتها وسعت الألسنة إلى المدينة تطويها طياً وتقطعها قطاً ، وكان القصر منيفا ليس له طول ولا عرض ، ويزعم صاحبنا أنه مدور ولا يدرى كيف دوروه ويقول الناس إنه مربع ولا يعلم كيف ربعوه وليس القصر مدوراً ولا مربعا ولا مستطيلا ومن العبث أن يصور صاحبنا قصراً لم يحده بصره ولا عقله لا فى الطول ولا فى العرض إنما هو قصر الحاكم العام فحسب ، والحاكم العام يمثل ملك مصر وتحكم باسمه ، ويتواضع هذا الحاكم العام مرة واحدة فى كل عام ، فيخرج إلى الناس فيشاهدونه وتدار كؤوس

المريسة (١) فى إندايه (٢) وتحمل كل إندايه علمها وتضرب النساء الدلوكة ويصفقن تصفيقاً منتظماً فاذا مر عليهن الحاكم العام زغردن فرحات مستبشرات ، ويصطف الرجال على جانبى الطريق يهللون للحاكم الخطير ويأخذ العظماء والعيون يهيئون أنفسهم للمثول بين يديه فى مكان معدود .

والقسم الثانى من الأقسام الثلاثة صفت بيوته فى خط مستقيم وقلما تشاهد فيه داراً فيها طبقتان فكل المنازل طبقة واحدة ويسكن هذه الدور المصريون وأعيان السودانيين فى الخرطوم وقد كانت صلات هؤلاء بهؤلاء وداً وادكاراً . وراعوا فى الصلات حرمة الدين وحرمة الجوار .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة يسكنه الدهماء

---

(١) البوظة (٢) المكان الخاص لشرب المريسة

Digitized by Birzeit University Library

من أهل السودان وفيه أسواقهم وتجارتهم ؛ وقد ازدحم بالعشش والأكواخ ولا يعرف صاحبنا عن هذا القسم الأخير أكثر مما يعرف عن أتعس قرى المصريين فى أتعس الأحايين .

***

١٣

مضى على صاحبنا فى الخرطوم عام وشهور يخلع عن نفسه آلام الماضى الرهيب ويسكب صبابة الذكريات اللواذع ويستفتح عهد الحب والرجاء ؛ ويستمطر ندى الحياة الراغدة ؛ ولم يكن صاحبنا كـكل صبى فى الخرطوم يقضى الوقت بين المدرسة والبيت واللعب بل كان أعقل لحياته وأكثر فهما لها ؛ وكانت شئون قلبه تدعوه الى القراءة كما كانت شئون طباخ البيت تلح على صاحبنا فى الكتابة . كان يقرأ ويقرأ كثيراً ؛ كان يشترى الروايات

مكتبة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

ويقرؤها وكان يطالع الجرائد التى يحملها عمه، وقد قرأ فيما قرأ كتابا ضخما فى تاريخ السودان وهو لا يذكر اسم الكتاب ولا اسم المؤلف غير أنه يذكر كيف كان يقعد من أقرانه يشرح لهم ما فى الروايات من مغامرات الحب ومغامرات الصيد، وكيف كان (طرزان) يركب السباع وكيف كانت تأنس له الوحوش ثم يشرح لهم حوادث العالم ويعطف على مصر ويذكر لهم شئونها جميعا ويزيدهم علماً بالتاريخ ويبسط لهم فتح السودان وكيف حارب المهدى وكيف هزم.

وكانت سميرة تقعد منه مثلما يقعد منه لداته. تقعد كما يقعد التلميذ من أستاذه؛ وكان يسرها منه هذا الحديث؛ فهى لم تكن ترغب فى اللعب رغبتها فى الهدوء والرزانة، وكانت تحس فى جنبات صدرها ميلا اليه أكثر مما تحس به نحو الصبيان جميعاً فكان إذا لعب هو لعبت وإذا

Digitized by Birzeit University Library

قعدقعدت وإذا مال الى شيء تميل حيث يميل، ولم يكن بينها وبينه الاحب دائم ولم يتخلل جمعهما غضب كثير أو قليل .

وكان والد سميرة تاجراً فى الخرطوم له تجارة واسعة وكان على شيء من اليسار وشيء من الجمال وشيء كثير جداً من كمال الخلق ، هو رجل حكيم عميق السياسة عظيم الدهاء وليس صاحبنا بواصل الى وصف خبايا نفس هذا الرجل فالرجل إن لم يكن كاملا فهو أقرب الناس الى الكمال .

كان صاحبنا يحب هذا الرجل ، وكان يرجح أنه يحبه زلفى إلى حبيبته ولكنه يقسم اليوم أنه كان يحب الرجل لنفسه فقد كان الرجل يحدب على الفتى ويعشق فيه روحه الرقيقة الشاعرة ونفسه الوثابة الظافرة ، وصاحبنا يحب الناس جميعاً ويحب هذا الوالد حباً جماً ، وكان الرجل يعرف من آلام صاحبنا مثلما يحس

Digitized by Birzeit University Library

صاحبنا آلامه وكانت آلام الصبي تثير فى هذا الأب الرحيم عطفه وحنانه وما كان الرجل يضن بهذا العطف وهذا الحنان . وكان للرجل بنات غير سميرة وقد أعد لكبراهن حفلا فخما فى ليلة زواجها ودعى صاحبنا كما دعى غيره ، أو دعا هو نفسه فى ليلة الزفاف فقد كان لصاحبنا مكانة خاصة ودلال على البيت ومن فى البيت فلم يخفّ الى الحفل مدعواً كما تقتضى الرسميات . وسواء دعى أترابه أو جاء من غير دعوة فهو لا يذكر إلا أنه تألم فى هذه الليلة ألماً عميقاً ولم يشاركه فى الألم إلا فلان ، وقد حاول فلان أن يقلل من ألم صاحبنا وحاول عبثاً أن يسرى عنه هياج النفس وثورة العواطف .

كان الحفل جميلا ، وكانت العروس أجمل منه وكان الناس يفدون اليه بين راكب وراجل وكانت ملابسهم متباينة كثيرة الفوارق ، كان لاستقبال العمة قيمة وكان

Digitized by Birzeit University Library

للطربوش قيمة أخرى وكان للقبعة أغلى القيم! وقد أحس كل بقيمته وأسرف فى الاحساس فلم يتخط حدود مكانته، وكان الداعون يستقبلون كلا بانحناءة خاصة فمرة هم مقوسون ومرة مدورون ولا يدرى صاحبنا ما الذى يقوسهم ويدورهم وقد خلقهم الله معتدلين.

وكانت الموسيقى توقع أنغامها وتعزف دقة خاصة كلما ترجل عظيم، وكان رجال الموسيقى أكثر الحاضرين بهجة وأبلغهم تأنقاً وأشدهم إحساساً بالجمال. كانت حللهم خضراء عليها أشرطة من القصب شديدة اللمعان وكانت أحذيتهم سوداء شديدة السواد، وكانت طرابيشهم الحمراء على رءوسهم وقد وضعوها مصغية الى الشمال قليلا يتدلى منها الزر الأسود يلاعبه الهواء، كانت ملابسهم خليطاً من الألوان كقوس قزح فى السماء. وكانت أقدامهم ترتفع وتنخفض وتوقع على الأرض نغما ضعيفا كما يوقعون

Digitized by Birzeit University Library

بأفواههم وأناملهم على الآلات ، وكان ينتصفهم رجل منهم فى يده عصا قصيرة يضرب بها قلب الجوعن اليمين وعن الشمال ويغزو بها كبد الفضاء بين الأرض وبين السماء ، وكان لهذا الرجل فضل اتزان النغم وحسن الأداء .

كان المقصف غنياً دسما حلوا ليس فيه نقص ولا ما ينم بنقص ، وكان المدعوون يتهافتون عليه وقد طووه فى بطونهم طيا وأتوا عليه كما تأتى عوامل التحات والتعرية على الاطواد الشاهقة ومد للنساء مقصف كما مد للرجال بيد أن النساء مرهفات فى كل شىء فلم يكن نهمات كما كان الرجال وقد عملن فى الطعام مايعمل النسيم فى الجبال.

وقد قضى الناس زلفا من الليل يستمعون الى الغناء مرة أو يشاهدون الراقصة وهى ترقص للنساء ، وانتهز الشبان فرصة الرقص وأشبعوا عيونهم من المدعوات

Digitized by Birzeit University Library

وأخذوا يفتشون بينهم عن مثلهم العليا وأولئك بدورهن قد أجلن الطرف فى الشبان راغبات مثلما يرغب هؤلاء من جمال .

وكانت سميرة وصويحبات سميرة قد اجتمعن بمن حولهن من فتيان وقد وجدوا جميعاً فيما يحوطهم روحا ومسرة فأنصتوا الى الغناء مرة والى مرح الرجال مرة أخرى . وكان بين المدعوين رجل فى الثلاثين من عمره أو يزيد قليلا وكان هذا الشاب متعة الليلة فقد شرب خمراً كثيراً وراح ينكت ويتظرف ويسخو على الحاضرين تنكيتاً وضحكا وأطلق نفسه بين الجميع يضاحك هذا ويعاكس هذا وقد عطف على الصغار وتبرع بنفسه سخرية لهم ؛ وأسفّ فى هذا التبرع وأوغل فى علاقته بهم وأمسك بسميرة يلاعبها وهى تتمنع ويدانيها منه وهى تصده ثم قبلها وحملها وهو يترنح .

Digitized by Birzeit University Library

غضب صاحبنا وأرعد وأسر فى نفسه الغضب والارعاد وغار على صديقته من هذه القبلة وكره من الرجل المتظرف هذا العبث ، وصمم على أن يمضى إلى بيته غاضباً على سميرة ناقماً منها على ما قدمت يداها وهى غضبى ولكن فلانا لاحظ صاحبنا فى ثورته فسامح فيها وراح يؤكد لصاحبنا أن الرجل برىء وأن البنت أبرأ وأن الرجل ليس من الغباء بحيث ينشد من صبية فى سن سميرة متعة ورغبة ، وأن الرجل كان ثملا وليس الرجل من أولياء الله حتى يحس ما بين سميرة وبينه فيعقل ويكون أكثر جدا فى مجونه وفى سكرته ، ولكن صاحبنا أبت كبرياؤه أن تتهم كرامته وهو لا يجرؤ على أن يتقدم ليحفظها أو يسرع ليصون كرامة حبيبته ومضى إلى بيته وخلّف مجال المرح لأترابه .

* * *

١٤

طالت الأيام على سميرة وصاحبنا لا يزورها ولا يحاول أن يراها فهو غاضب عليها شديد التأثر منها ولم تكن تعرف لهذا الغضب سبباً فحملت سلامة طويتها غيبة صاحبنا على غير ما كان الصبي يحمل من أسباب.

وكانت العواصف في الخرطوم شديدة ثائرة وكان الناس في العواصف يهرولون إلى بيوتهم كما كانت الأطيار تخف إلى أوكارها وتسكن كل سارية في الأرض وسانحة في السماء بينا العاصفة تتجمع رويداً ثم حثيثاً وهي مرة سوداء وأخرى حمراء وتارة صفراء، وإذا استجمعت العاصفة قواها ولمت شعثها هجمت عنيفة شديدة الهجوم. وكانت الخرطوم تحوطها ظلمة قاتمة السواد وتتصدع بعض جدران البيوت وتقتلع الأشجار من أصولها وكان (الهبوب) وهو الأسم الذي يطلقه السودانيون

على العاصفة يحمل فى طياته العقارب والثعابين ويحمل الانسان فى تضاعيفه إن قابله إنسان ويلقى به حيث يهدأ ويلين فاذا خفت ثورته وسكن هياجه انقشعت الظامة وبدا ضوء النهار وراح الصغار يفتشون فى الأرض عما ورثتها العاصفة من أشياء .

وخرج صاحبنا مثلما خرج غيره من الرفاق ولا يدرى كيف مضى إليهم يستطلع أخبار الأرض وما خلفه الهبوب من تراث ، ولكنه يذكر سميرة وقد أقبلت عليه تسترق منه القلب والروح وهو يستجمع لها نفسه ويحاول أن يفتر فى ملاقاتها ، وقد شغلها وجهه الضاحك يعلوه التجهم وينطق بالغضب و آلمتها منه تلك النظرات النافرة وقد كان يرمقها نظرات وادعة وعز عليها فهم المطبق وقد كانت ابتسامته لا تزايل ثغره . وبوجهها الجميل المشرق خفت اليه متوددة ، وتكلمت فى شئون

Digitized by Birzeit University Library

الهبوب وما عثر عليه الصبيان وسألته أن يذهبا معا إليهم فقد وجدوا سلحفاة حملتها الرياح فيما حملت من بلاء ، بيد أنه أبى هذا العرض وأراد أن يمضى فاستوقفته وأخذت تتحدث حديثها الحلو وتكثر فى ألفاظها من ثائها الموسيقية الجميلة وصاحبناقداسترخى رأسه واتصلت ذقنه بصدره وخرجت شفتاه إلى الجو تعلنان ألما فى نفسه وتخططت جبهته بخطوط رفيعة رمزاً لخواطره الثائرة فى دماغه وامتد بصره الى الأرض فى انكسار وضعف .

ظنت طفلتنا أن صاحبها يحمل فى نفسه ألما وخافت أن يكون مصدر الألم مدينة القاهرة فقد كان عزيزاً عليها أن ترى صاحبنا متألماً وهو لا يألم إلا إذا علم بمرض أمه . ولكن ظنها قد خانها فان أم صبينا لم تكن مريضة ولم ينبئه بريد الأسبوع بخبر سار أو حزين ،

سألته أهو متألم لأمر عظيم وتمنت عليه أن يكشف لها حاله ويبين لها مصدر الألم بيد أن صاحبنا فاجأها أنها هى مصدر آلامه .

دهشت سميرة لهذه المفاجأة الغريبة ولم تكن تعلم أنها قارفت ذنباً أو ارتكبت إثماً فطلبت إليه أن يدلها على موضع الخطأ من سلوكها فهى تذكر أنها تطيعه فى كل ما يوحى به وترفه عنه إن لحقه الهم وتبكى له إن مرض أو بكى ولم تذكر مرة واحدة أنها أساءت إليه فى لعب أو ضحك أو أنها حاولت أن تتطاول الى مكانه من نفسها بل كان صاحبنا غالياً عندها سامياً فى تقديرها فكيف تكون هى مصدر آلامه

شرح لها نواحى الألم من نفسه وحمل على ذلك الرجل الثقيل ذى الشارب الذى قبلها يوم الفرح ، وأخذ صاحبنا يخاطبها بلغة لا تفهمها ويحاورها فى أسلوب فيه من القسوة

ما أذرف دموعها وأسأل عبراتها حتى بدأ الحق يميل إليها ويبين فى جانبها وشق عليها هذا العنف وأرادت أن تمضى إلى بيتها غير أن صاحبنا لم يكن من القسوة بحيث يترك صاحبته تذهب وهى عليه غضبى فاستمهلها ثم اعتذر واستغفر فقبلت منه هذا الحنان ضاحكة وأخذت يده فى يدها وأسرعا الى أصدقائهما فى الحارة الملعونة التى ورثها الهبوب سلاحفه وأفاعيه

* * *

١٥

يعتقد بعض الناس أن حب الفتى للفتاة ملهاة له عن شؤون نفسه وأنه مضيعة لزمنه ومفسدة لأمره، ويزعم بعضهم أكثر من هذا: يزعم أن الحب منقصة للضمير وأنه باعث للشهوة ودافع لها. وعلم الله أنهم يفسدون طعم الحياة بزعمهم ويسقمونها بضلالهم،

Digitized by Birzeit University Library

وأغرب من هذا ومن هذا أنهم أدعياء ينصبون أنفسهم لهداية الحياة وهم أبعد الناس عن الحياة وليس يشك عاقل أن القلب الذى خلا من الحب هو قلب فارغ لا يمت إلى الطبيعة بنسب ولا تمسه رحمة ولا شفقة ، وأين الانسان من الحياة إذا لم يرهف حسه أو يصقل طابعه بالحب وتحاسيس الحب ؟

إن الذين يحبسون يجنبهم الحب عن الصغائر ويسمو بهم إلى المثل الأعلى تنشده جوارحهم وتهتف به مشاعرهم، وكل شىء فى الحياة يهون وكل لذة فى العيش تفنى أما شؤون الحب فلن تعفو على الزمن ولن تبيد .

وكلنا مفطور من عنصرين وقائم على دعامتين أى أن كلا منا مقدود من إحساسين إحساس بالخير وإحساس بالشر . والحب يخطو بالانسان إلى الخير خطوات وإلى الشر خطوة ويمضى به إلى العدل مرات وإلى الظلم مرة.

Digitized by Birzeit University Library

التقى صاحبنا بحبيبته قبيل سفره الى القاهرة ليؤدى امتحان الشهادة الابتدائية وقد مضى عليه فى الخرطوم عامان ؛ وكانا يتحدثان فى أمر السفر ، وكانت سميرة أشد الناس حملة على هذا الرحيل وأكثر الرفاق ابتئاساً لهذا السفر ؛ هى اليوم فى الثالثة عشرة من عمرها هو يكبرها بعامين ، كلاهما شديد الرغبة فى صاحبه مالىء فراغ قلبه سادر فى نفسه وروحه ، ولم تكن سميرة تتوقع هذا الفراق وقد شق عليها أن تر سمير نفسها ومؤنس روحها وأعقل لداته وأظرف صحابه يتركها تسعى بين من دونه فى نفسها وقد وكلت له كل جوارحها فلم يبق لها جارحة تهبها لغيره .

كرهت الشهادة الأبتدائية . . . ومبدع الشهادة الابتدائية . . . ! وكم كان يسرها لو التحق بمدرسة التلغراف فى الخرطوم كما كان يرغب عمه فتختفى بذلك

فكرة السفر باختفاء البواعث والأسباب ! ولكن صاحبنا لم يكن يفكر تفكيرها ولا يرضى بهذا الحظ المحدود من الحياة وإنه ليشعر أن مدرسة التلغراف لا تعيد تراث الذكرى الطيبة التى خلفها أبوه وليس الصبى من الغباء بحيث ينشد حب سميرة إلى الأزل إذا لم يتركز هذا الحب فى دعائم الفكر السليم والمجد الرفيع ، وليس فى مدرسة التلغراف فكر سليم ولا مجد رفيع ، كان عليه أن يسعى الى الحياة وكان عليه أن يدخلها من أبوابها ، وهل نسى صاحبنا قصة جده وبيت الشعر وهو يلازمه روحاً طوافاً ومثلا أعلى فى الوجود ؟

إنه ليسجن قلبه من أجل قلبه وليمض الى حيث يرغب ويريد ؛ إنه يودع صديقته ويستودعها إخلاصه فتودعه وتستودعه حبها فيسألها دعوات الرجاء وتسأله

هى حفظ ما بينهما من ذكريات ، إنهما يفترقان الآن هى إلى بيتها وهو الى القطار .

وعند القطار ينتظر الصبيان ليودعوا صاحبنا الذى أستأثر نفوسهم عامين وهاهم أولاء يقبلون عليه مودعين وها هو ذا يهش لهم مضطربا ويضحك لهم دامع العين سخيه ، إن صاحبنا يودع السودان دمعه ويودّع فى الخرطوم قلبه . . إن القطار يتحرك وهو يتجلد . . إن القطار يسرع ودموعه تبطىء فالقطار غنى بفحمه وصاحبنا قد فرغت شؤون عينه . . . !

* * *

Digitized by Birzeit University Library

١٥ أكتوبر ١٩٢٤

لست أدرى كيف أعتذر اليك وأقدم غصن الزيتون؟ فانى أكاد ألمس تألمك منى وغضبك علىّ كلما تذكرت الشهور الخمسة التى طواها الزمن ولم أكتب لك. ولست أشك أن دفاعى عن هذا الخطأ سيكون فاتراً مهما دافعت. على أننى ألتمس من روحك الرقيق عفوك. نحن هنا نقضى زلفاً من الليل فى حجرة المذاكرة فى المدرسة الخديوية وقد احتضن التلاميذ أدراجهم وانكب بعضهم عليها، وهناك بعض منهم يحرر كتباً كما أحرر لك، والبعض الآخر أخذته سنة من النوم.

لا أريد أن أثقل عليك الحديث بيد أننى أرى لزاما علىّ أن أعرج فى كتابى على هذا المعهد الذى أنهل منه، وأحسب أنك فى حاجة الى الحديث عن المدرسة الخديوية فهى أقدم معاهد مصر الثانوية. ويأخذك منها اتساعها

Digitized by Birzeit University Library

وضخامة بنائها وليس البناء فى حالة جيدة كما يبدو لأول وهلة غير أنه بناء فخم يسع ألفاً من التلاميذ ولا تزال فيه نضرة الشباب كما تذبل الوردة ويبقى أرجها .

والتلاميذ هنا يسرفون فى مراعاة قواعد اللياقة وأغلبهم من السراة أبناء الوزراء والباشوات ومن على شاكلة هؤلاء ، يخاطبونك بتحفظ ويلاحظونك من الرأس إلى القدم ، ولا يعجبنى منهم هـذا التحذلق ، والحق إنى أكره فيهم هذا الغرور بيد أن المدرسة لم تعدم تلاميذ هم روحها وبهجتها ، وهؤلاء متوسطو الحال منهم الخطباء والممثلون والعازفون على آلات الموسيقى ومنهم أوائل الطلبة فى العلم وسادتهم فى الحياه .

والمدرسة ناظر طيب القلب طاهر النفس يملأ روحنا إيماناً بمجد وطننا ويحببنا فى الحياة ويدفعنا إليها ، يعلمنا إلى الدرس كيف نحافظ على كرامتنا ونرتفع بها

Digitized by Birzeit University Library

عما يشوبها من الضعف والوهن ، وأحسن مافيه أنه يعطينا من نفسه الرفيعة بمقدار ما يعطى الوالد أولاده ، وفى هذا المربى الطيب الطاهر العالم نحس المثل الأعلى الذى يهفهف عليه الروح ويغتذى منه الوجدان ، وقد وصل حياته بالمدرسة فكان فيها طالباً ومدرساً ووكيلا ثم ناظراً كريماً سخى الوفاء .

ويدهشك من المدرسة أنها أسرة واحدة توثقت أواصر الألفة والمحبة بين الأساتذة والتلاميذ وأحس الأستاذ فى تلميذه ابنا براً والتلميذ فى أستاذه أبا رحيما ، وما أجمل أن ترى الأساتذة وهم يسهمون مع تلاميذهم فى جمعياتهم وألعابهم ويشاطرونهم رحلاتهم ومتعهم !

أنا عضو فى هذه الأسرة بيدأنى لاأزال متفرجا أكثر منى ممثلا فعهدى بالمدرسة قريب ، ومما يحبب إلى هذا المعهد أنه عُرة المعاهد فى كل ماض وآت فان ناظر المدرسة

يؤكد لنا أن العناصر الحية فى بلادنا قد نزحت من معهدنا ويضرب لنا الأمثال بمصطفى كامل الزعيم ولعلك تعلم عنه أكثر مما أعلم .

أود يا صاحبى أن تكتب لى عن الخرطوم وعن الصحاب جميعا ولا يفوتك منهم سميرة فانى أذكرها كلما انفردت بنفسى أو آويت إلى مضجعي ، إن وسادتى الوفية تحمل عنى اليوم آلامى كما كنت تحملها أنت . أذكرنى عند من يعرفنى ولا تنس عمى وزوجته الطيبة ، إنى أحفظ لهما أجمل الذكريات .

Digitized by Birzeit University Library

٢٣ نوفمبر

إنى مسرور جداً من صورة سميرة التى أرسلتها ، وقد ذهبت إلى المصور ليصورنى فأخرجنى مشوها وأحب أن أرسل لكما صورتين ولكنى أخاف أن تضحكا منى ! كنت قد وعدت أن أشرح لك كيف التحقت بالمدرسة الخديوية ؟

انك تعلم من أمرى مثلما أعلم أنا ، وأنك تعلم أننى غاضب على أهلى جميعا وما أنا بآسف على ذلك ولا حزين فهم أقسى علىّ من الزمن وقد أسرفوا فى قسوتهم منذ كنت صغيراً ، فلما وصلت الى القاهرة بعد أن أديت الامتحان فى أسوان دفعنى حنين القرابة إلى زيارتهم فغشيت بيوتهم سائلا عنهم والحق إنهم قابلونى مقابلة طيبة وتوددوا إلى كثيراً وطلبوا منى أن أمضى حقبة الاجازة حتى يستقر رأيي على ما أنا معتزم فى الحياة ،

فلما رأيت منهم هذا الحنان وشعرت أن سلاح القسوة قد صدأ رضيت بهذا العرض ونزلت على طلبهم .

ولما أعلنت نتيجة الامتحان سروا جميعا وكان سرورهم عظيما لما علموا تفوق فى الامتحان ، وكانت أمى اكثرهم فرحا وأشدهم تيها وزهواً بابنها النجيب قد نشأته خير تنشئة ، أنى أذكر لك أمى وأنا شديد الألم لها متطير عليها فهى دائمة المرض لا تكاد تشفى حتى تعود إلى مرضها ، إنى أبتهل إلى الله أن يمن عليها بعطفه وأتمنى عليك أن تشركنى فى هذا الدعاء .

علمت أن وزارة المعارف تقبل بعضاً من التلاميذ فى مدارسها بغير أجر وعلمت أنها تشترط لذلك شروطاً ، وأهم ما تشترط تفوق التلميذ فى درجات الامتحان وأن يكون فقيراً ليس فى مقدوره ان يدفع أجر تعليمه ولعل أهم ما فى الشروط هذان الشرطان ، وعلمت ان هناك

Digitized by Birzeit University Library

شرطاً لم تعلن عنه الوزارة وهذا الشرط يسمو على الشروط جميعا، تشترط الوزاة أن يكون للانسان واسطة وله تكأة.

وقد أحزنني هذا الأمر أشد الحزن واستغرقني من أجله الهم والفكر فأنت تعلم أنني لا أعرف واسطة ولا مساعداً ولكنني أعرف أن من أهلي من يصلح ليكون واسطة وتكأة بيد أنني أكره أن يكون لانسان على فضل فأخذت أفكر في أمر الواسطة، ولما أعياني البحث عنها في الأرض رفعت عيني إلى السماء واتكأت على شعاع هذه القوة السماوية وملأني يقينها واستغرقتني قوتها فرحلت إلى الاسكندرية حيث تقيم الوزارة في مصيفها.

وهناك يا صديقي نوع من الفوضى وكثير من الاضطراب وشؤون الوزارة كثيرة متباينة وقد أخذت أجيل الطرف في الموظفين وأتباع الموظفين وأتباع التابعين فلم أوفق

Digitized by Birzeit University Library

إلى واحد منهم يدخل على كثيراً أو قليلا من الاطمئنان .

وفى هذه الساعة التى تقرر فيها مصيرى طاف بخلدى بيت الشعر الذى حدثنى عنه جدى فأثارت بى الذكرى حنينا إلى المجد وحنينا إلى الحياة ، ودخلت إلى حجرة جميلة وسألت موظفا فخما تستوقفك بزّته وأناقته : سألته عن الوزير وقد سألنى هذا الموظف ألف سؤال قبل ان يجيب على سؤالى ورمقنى بألف نظرة قبل أن يستقر نظرى على طوله أو عرضه ، والحق أنى وجلت واضطربت من هذا الموظف وكدت أقطع الأمل فى مقابلة الوزير فسكرتيره — وقد علمت أنه سكرتيره — أعطانى صورة قبيحة عن الوزارة والوزير بيد أنى تجلدت واصطبرت وتمنيت عليه أن يخفض جناح الذل من الرحمة ويسمح لى أن أقابل الوزير ولكنه كان رجلا فظا غليظ القلب على أنى مع ذلك لم أنصرف واسترخصت معه كل شىء

وبدأت أرفع صوتى وهو يشمخ بأنفه ، ولما حاول أن يطردنى بكيت يا صاحبى أشد البكاء وأجهشت وعلا بكائى وإجهاشى وضج الوزير من هذه الضجة وسأل سكرتيره عنها فقص عليه قصتى فأمر بادخالى اليه .

مثلت بين يدى الوزير دامعا أقدر للمنصب خطره وجلاله فما عتم جلال نفسه أن أنسانى جلال منصبه ، وما لبث أن شملنى بألوان شتى من التحيـة والترحيب ، شفة باسمة ويد مسلمة ونظرة ترمقنى وادعة ، وفى الحق أننى التمست بين ثوبيه الوزير العظيم فلم يتكشف لى الا عن الوالد العطوف الرحيم يتحدث فى ابتسامة لا تزايل ثغره ودقة أخذت عليه نواحى طبعه ، واصبحت فى هزة المرح الطروب أودعه ما أشاء من رغبات وقد أعجبته حميتى ونفذلى ما أحب والتحقت بالمدرسة التى ازدحم ببابها أولاد الوزراء ومن يلوذ بهم من أبناء البيوتات .

٢٨ ديسمبر

إن فكرى شارد ونفسى مبلبلة فأمى مريضة وأخاف عليها هذا المرض الذى نغص عليها عيشها ، كم أود ان يرفه عنها وتعود اليها صحتها . انى أزورها كل يوم وهى تبكى كلما رأتنى وقد حاولت ألا أزورها حتى لا أثير آلامها وأسفح دموعها فلم أفلح لأنى احبها اكثر مما أحب نفسى.

إن الحياة سقيمة كلما أحسست ان أمى مريضة .

ادع معى وابتهل الى الله ان يشفيها ويمسح عليها بيد العافية . لقد زرت أضرحة الأولياء أمس ووقفت بحلقات قبورهم وقبلتها كما يقبلها الناس وقد بكيت كثيراً وسألت أصحاب القبور شفاعة عند الله .

لا تحدث سميرة عن مرض أمى ولا تخبرها بحيرتى . لا أريد أن أسبب لها ألما فى حياتها الراغدة . . .

Digitized by Birzeit University Library

فى الدين ولا فى الدم ، أرجو ألا يبهظنا هـذا العسف . ونحن أمة واحدة ولن تنفك أواصر الحب والولاء التى بيننا مهما جارت يد البطش على تلك الأواصر .

والد سميرة قد أفلق فى ثرائه وراجت تجارته أكثر مما كانت تروج فى الخرطوم ، كم أنا سعيد لهذه الأسرة إنى أحب فى سميرة أسرتها بل أحب فيها الوجود . إن آلامى تخف رويداً بعطف أسرتها علىّ وأنا أقدر هذا العطف قدراً ساميا .

لا تنس أننى عند صداقتك القديمة وأننى محتفظ بها منذ كنا صغاراً وأننى أغذى هذه الصداقة على ما بيننا من بعد الشقة ولا أنسى عطفك وحنانك علىّ وكتابك الرقيق ولكننى سأشعر بالوحشة حين تذهب إلى بحر الغزال فيما كلفتك به الحكومة وأرجو ان تئوب الى الخرطوم سالماً حتى تعود وتكتب لى .

Digitized by Birzeit University Library

أتمنى عليك أن تحمل الى تراب الخرطوم تحياتى وأن تحمل لمن يدب عليها ومن يتنسم عبير هوائها كل ما يكنه قلبي من ولاء . إنى أحب هذا البلد الطيب الكريم

* * *

١٧ أبريل ١٩٢٨

وصلنى اليوم كتابك ولشد ما سرنى هذا الكتاب ! لقد طالعنى بروحك الجميل ففرحت أشد الفرح لأوبتك من بحر الغزال والحمد لله الذى أنقذك من بعوض تلك الجهات وكم كنت أود أن أكون برفقتك فى هذه الأعوام التى قضيتها هناك لأزود بطيب منابع النيل ! تقول إن لونك ضرب الى السواد من حر الجنوب وأحسب أنك ملوم فى حملتك على بحر الغزال فمتى كنت أبيض اللون ياصديق العزيز ؟ إنك أسمر اللون منذ سمع سنوات وأحسب أنك تزيد سمرة كلما زادك الله عمراً . نحن لا

تهمنا سمرتك ولا يهمنا شكلك انما يهمنا أن تكون مستريح البال ممتع النفس .

تطلب منى ان أحدثك كثيراً عن أخبارى وأخبار مصر ، ولو لم تكن قد طلبت إلى هذا الطلب لتمنيت عليك ان تطلبه فعندى من الأخبار العامة والخاصة ما يسرك ، لقد نلت شهادة الكفاءة فى العام الماضى وتجدنى اليوم سعيداً بهذا النجاح فلقد أثمر وأينع . إنهم يقدروننى فى المدرسة كل التقدير وناظر المدرسة يحبنى كثيراً وكذلك أرى هذا العطف من الأساتذة جميعا أما صلتى بتلاميذ المدرسة فهى كصلتى بكم فى الصبى ، أحبهم ويحبوننى وليس فيهم غاضب علىّ بل أرانى موضع ثقتهم فى كل ما يمس ألعابهم وحفلاتهم ونزهاتهم . وفى المدرسة خمسون خادما . إننى أحبهم اكثر ممن فى المدرسة جميعا ، إنهم يتعبدون ويذكرون الله كثيراً ويدعون لى فى صلاتهم

ولست أطوى عليك أننى محبوب منهم بلا غرض فأنا كما تعلم فقير وليس فى مقدورى ان أمدهم كغيرى من الزملاء ، كم أود ان أكون غنيا لأكافئهم على هذا الحب !

لقد اقامت المدرسة منذ اسبوع حفلا ساهراً وكنت أخطب فى هذا الحفل وقد أخذت سميرة خطبتى وحفظتها كلها وكلما رأتنى وقفت تعيدها أمامى تياهة فخورة ، إنها اليوم جميلة جداً وهى تؤكد حبها لى وتقسم أنها ستعيش لى وحدى ، لقد عوضنى الله فيها أبى وكل ما تحتوى عليه الحياة من جمال .

لقد حاولت ان أقبلها فرفضت . ولما غضبت لهذا الرفض أخذت تحاورنى فى رخاوة ولين وطلبت إلى الا أنشد مثل هذا النوع من الحب وقالت إنه نوع رخيص لا قيمة له ، والحق إننى سعيد بهذه الفتاة الساذجة ، لم

Digitized by Birzeit University Library

أشته فى هذه القبلة شيئاً ولم أخسر فى رفضها شيئاً ، وقد حببنى فيها رفضها ، إنها مثل أعلى بين الفتيات جميعاً وأنا اكتفى بتقبيل يدها ، لقد جمعتنا ساعة عذبة وأخذنا نذكرك ونذكر أيامك الحلوة وقد أطنبت فى مدحك وطلبت منى ان أحمل فى كتابى تحيتها اليك .

أمها تضايقنى أشد المضايقة : هى تخاف تقاليدنا وعاداتنا وتحاذر ان أنفرد بابنتها وهى تناديها كلما رأتنا منفردين بيد ان هذه المراقبة تذكى ما بيننا من حب ، ولست أشك ان أمها واثقة من حرصى على شرف الأسرة وكرامتها ولكنها تخاف ان يهزمنا الشيطان غير أننى أحس مناعة فى نفسينا تقضى على كل سوء وتهزم كل شيطان ، تحياتى اليك ، أرجو ان تكتب لى وتطيل فى الكتابة . . .

* * *

١٠ يوليو

نحن هنا فى حجرة الاستقبال فى بيت سميرة وقد انتهينا من العشاء ؛ إنهم يحتفلون بنجاحى . وأقصد ان سميرة هى التى تقيم هذا الحفل وبقيـة الأسرة تشركها فى الاحتفال بى ولست أشك أننى لا أستحق كل هذا التكريم لذا ترانى خجلا من هذا الاسراف فى التقدير .

سيرحلون قريبا إلى الاسكندرية ليقضوا حقبة الصيف هناك وسأبقى انا فى القاهرة بقيظها الشديد وسأراسلك كل بريد وسوف أرسل لك الكتب التى تود قراءتها ولا تنس ان تذكرنى عند من يعرفنى فى الخرطوم .

* * *

Digitized by Birzeit University Library

١٧ نوفمبر

الحمد لله فأنا دائماً عند حسن ظنك وما أرجو ان أوفق إلى أكثر من هذا وما أنا بطامع فى الدنيا بأكثر من حسن الأحدوثة وطيب الذكر ؛ ولا تظن أن فى ذلك أملا محدوداً أو رضى بالقليل فالذى أطمع فيه كثير لا يواتى الانسان إلا بعد نصب الجهد وعنف الجهاد .

أشكرك على هديتك التى ارسلتها لى وقد حملت العقد إلى سميرة وهى تشكرك وتتمنى عليك ألا تكلف خاطرك مرة أخرى . لقد عادوا من الأسكندرية منذ شهر ولعبت شمس الشمال بلونها كما لعبت بلونك شمس الجنوب فى بحر الغزال .

إن سميرة تغيرت بعض التغيير فهى تسرف فى التأنق والزينة منذ رجعت من المصيف وأنا لا أكره لها هذا التأنق إنما غريب على نفسى أن تتحدث فى شىء من الفخر

عن سيارتهم الجديدة وتتمنى ان يكون لها سيارة خاصة ولا أدرى ما الذى يحثها على هذا التمنى وهى تتمتع بسيارة البيت ، وكلما مررت بها سيارة تلفتت يميناً وشمالا وتحدثت مع أختها (توتو) عن السيارات وشئون السيارات ، إننى لم أعتد منها هذا الحديث ولم أحسها تبحث فى مثل هذه الشئون ، كنت أعلم أنها تحب القراءة وترغب فى الدرس اكثر مما ترغب فى التأنق والكلام .

لست أشك ان هذا التغيير وقتى يزول بزوال الأسباب وقد رجعت من الاسكندرية بلد المغريات ، وأحسب ان عوامل الاغراء فى نفسها ليست من القوة بحيث تحدو بها إلى مايتعشقه فتيات اليوم من مجون . إن سميرة ياصاحبى مثل أعلى لا يأتيه الباطل من هنا أو هناك ، إنها الأمل الرفيع الذى أرغب فيه ومن أجله أحب كل أمل ، إنها متعتى الطاهرة وسعادتى المرجوة ، أذكرها يا صاحبى

كما أذكرها فانى أود أن يحبها الناس جميعا ويرون فيها مثلما أرى . فهى دنيا قائمة بذاتها : دنيا بغير باطل ، كلها حق وجلال .

إننى مكب على دراستى كما طلبت منى وفاء لوعدى لك ولست أشك ان عامنا الدراسى خطير ولكننى مطمئن إلى عطف الله واثق من حنانه ...

* * *

٢٥ فبراير ١٩٢٩

لاتغضب ياصديق لأبطائى عليك فى الجواب فانا لا أجد فسحة من الوقت تسمح لى بمراسلتك كما أحب فانت تعلم أننى مقبل على الامتحان وتعلم ان هذا الامتحان آخر عهدى بامتحانات المدارس الثانوية . أنا لا أذهب كثيرا الى سميرة لاننى غضبان منها فقد أردت ان أقبل يدها فرفضت واحتجت بأن جدتها تقول إن قبلة

اليدحرام . إنى ألاحظ فتوراً فى علاقتها بى، لا أقول إنها تكرهنى . إنها تحبنى ولست أشك أنها تحبنى فقد مرضت منذ أيام وسألت عنى عشر مرات فى نهار واحد وأنا ازداد فى زيارتهم غبا لأنى أخاف ان ألاقى منها فتوراً فيخمد حماسى وتفتر همتى على أننى أرجح انها مريضة فهى لم تكن مرحة كما عهدتها بيد أننى واثق انها نبيلة وطيبة القلب ، ألم تر كيف سألت عنى عشر مرات فى نهار واحد ؟

لا تنس أننى فى شغل بجماعات المدرسة كثير المذاكرة فلا تغضب إن أبطأت فى مراسلتك ، إنما أرجو ألا يفوتك أننى أذكرك دائماً وأذكر الخرطوم والسودان واهتاج للذكريات الحلوة كلما عثرت هنا على صاحب من هناك ...

* * *

٢٩ يونيه ٩

أكتب إليك وفي يدى صحيفة نشرت أرقام الناجحين في البكالوريا وقد ساهمت نمرتى فى تلك الأرقام وطالما أحسست انها تلمع بين النمر جميعا وأحسب هذا شعور كل ناجح.

إنك سعيد عن غير شك لهذا النجاح وكم كنت أود أن يطيل الله من عمر أمى لترى هذا النجاح وتفرح بى كما تفرح الأمهات ؛ إننى مسكين ياصاحبى فقد حرمت هذا الشعور غير أننى مطمئن الى روحها فسأخف إلى قبرها وأرضى هذا الروح الطيب وأفرحه كما لو كنت بين أحضان صاحبته. ولست أشك انها عطشى إلىّ يدعونى حنينها إلى ارتياد مزارها وتجديد الأسف عليها وسوف لا أبكى ولو ان روحى مشطور عليها. سأقف على قبرها آسفاً على جثمانها مخاطباً روحها الحى الذى لا

Digitized by Birzeit University Library

يموت : سأضاحك هـذا الروح وأطرق خشوعا لتلك العظام والأشلاء .

زرت منذ ساعتين سميرة وقد فرحت فرحا صادقا لنجاحي وراحت تعلن هذا النجاح بين صويحباتها وأهلها ، وقد ضج بيتهم لهذا النجاح وانفردت بها يا صديقي وسألتها أتحبني اليوم ؟ فأجابت أن لا محل لهذا السؤال لأنه غير خاف على أحـــد بلهَ أنا كيف تخلص لي وقد آلمها هذا السؤال واعتبرته نوعا من الشك ما كان يجدر بي ان أوقظه : فاعتذرت إليها ثم سألتها عن رأيها في كزوج إذا أتممت دراستي في الجامعة ؟

إنها استراحت إلى هذا السؤال ولم تبهظها خطورته بل أجابت وهي هادئة أنها تقدرني وتقدر إخلاصي ولا تمانع في الزواج غير أنها تخاف أهلها وتعمل للتقاليد ألف حساب فأفهمتها أنني أعرض خاطراً بدا لي من زمن بعيد

Digitized by Birzeit University Library

وأنى اسألها وأرغب فى موافقتها وأنا الكفيل بتعبيد الطريق بينى وبين أهلها . ولم تكن موافقتها عسيرة فقد تاولتنيها راضية فى غير عنف ، ولم تكن سميرة تخطىء حظى فى الماضى وما أنا عليه اليوم فقد طفقت تهزأ بالمال والثراء وتؤكد أنها ترغب فى ولا تبحث عن غنى أو فقر وأنها مطمئنة إلى جهادى فى الحياة وأنه يكفيها غنى العقل وثراء الضمير

هذا جميل من صديقتى بيد أننى أخاف اهلها ولا أخاف أباها فهو رجل بعيد النظر ثاقب الفكر يضعنى من أولاده المثل الأعلى ، ولست أشك أنه يقدر عاطفتى لو علم بها ولا يسترخص قيمتى ولو اننى فقير لا أملك غير ما يكفينى ، إننى أعلم أنه غنى وأنه من أثرياء التجار فى مصر وأنت تعلم كيف يعتد الناس هنا بالغنى والجاه ، وهذا الشعور بالغنى والجاه يخوفنى من هذا الوالد الرحيم ، لم

يحن الوقت بعد لأتحدث مع والدها فى شأن بنته فانها لاتزال صغيرة وأنا لاأزال فى كفاح العلم ولم يأته الراغبون فيها ولا الخاطبون .

سيسافرون إلى الاسكندرية قريباً وأنا أرهب هذه المدينة وأتوجس منها خيفة فزملائى هنا يتحدثون عنها فى شىء من الاعجاب والتقدير ولا يسرنى منهم هـذا الاعجاب وهـذا التقدير فهم يعجبون بكل رذيلة فى الاسكندرية ويقدرون معانى الفجور فيها فانى أسمعهم يتساقطون أحط الأحاديث عنها لذلك أخاف على حبيبتى من ذلك المصيف الذى يجمع أنماطا من الناس ويضم شبابا يستمرىء اللذات ويطوى ضميره طياً محكما وينسى فى لذاته الكرامة والشرف ، بيد أننى واثق من سميرة فهى أسمى من بنات حواء جميعاً وهى فوق النقائص والرذائل ، لقـد وعدت أن تكاتبنى وهى فى

الاسكندرية ووعدت ان تذكرنى فى البر والبحر وفى حركتها وسكونها وأقسمت بان تراعى شعورى وتحافظ على عهدها لى وتنأى بنفسها عن كل ما تشوبه نقيصة ، إننى سعيد بهذه الفتاة وكلما قربت منها اتصلت روحى بروحها وسعدت بهذا القرب وانشرحت نفسى لهذا الاتصال .

* * *

٩ يوليو

سافرت سميرة الى الاسكندرية وطالعنى بريد اليوم بكتاب منها يذوب رقة ويملك القلب ويصبى المشاعر ، تقول إنها مبتئسة من الاسكندرية . أتعلم لماذا هى مبتئسة من الاسكندرية ؟ لأننى لست بجانبها « يدور يومى ولا أشعر باحساس جميل وأعجب « لتوتو » من سرورها بالبحر وأدهش لاعجابها بالسينما : كل هذا جميل

Digitized by Birzeit University Library

كما تعلم ولكننى أراه قبيحاً وأنت بعيد ، إننى أذكرك وطالما ذكرك والدى ونحن على الطعام ، وطالما ذكرك الجميع بكل خير ؛ ولم يكن يعجبنى هذا الاستذكار فهم لايزالون يغمطونك حقك ولايفهمونك وأناوحدى التى اذكرك وأذكر فيك إخلاصك ووفاءك فاذكرنى كما اذكرك واكره القاهرة لبعدى عنك كما اكره الاسكندرية لبعدك »

أقرأت ماكتبت صديقتى الوفية ؟ إنها تجيد الكتابة كما ترى ولكنها تعنى بالمعنى أكثر مما تعنى باللفظ وكم تعجبنى سلاقة معانيها ! إنها تكره الاسكندرية لبعدى عنها وتطلب منى أن أكره القاهرة لبعدها عنى ، أقسم لك ياصديق إنى أكره الوجود وأحتقر الحياة كلما أحسست غيبتها فان حياتى ناقصة لايكملها إلا قرب هذه الحبيبة الوفية .

إن فضلك لا أنساه فانت الذى مكنت من قلبى بذرة

Digitized by Birzeit University Library

الحب البرىء الساذج حتى نمت وترعرعت فاذا هى اليوم شجرة مورقة فروعها عواطف وأوراقها آمال فذكّر يا صاحبى نفسك وبلغها ان صديقك لايزال يحفظ لك الود والاكبار . . .

* * *

١٥ يوليو

لم يطالعنى البريد بكتاب من سميرة لذا تجدنى شديد الطيرة عليهم جميعاً . لا شك أن ملاهى الاسكندرية تلهيهم وتقتل أوقاتهم . .

كم أخاف الاسكندرية ! !

* * *

٢٥ سبتمبر

لشد ما يؤلمنى ياصديقى ان أبطىء عليك فى الجواب

Digitized by Birzeit University Library

ولعلك قد أحسست أننى لا أكتب لك غير مايهمك وكلما جاءنى منك كتاب أرسلت اليك الجواب بعد أن أجمع مواده ، ومواد الجواب فى الاسكندرية يا صاحبى !

إن سميرة هناك وأعتقد أن أمرها وأمرى معها يهمانك أكثر مما فى القاهرة من أوصاف ، هى لا تكاتبنى كما وعدت وكنت أحسبها عند وعدها ولست أشك أنها لاهية عنى بما وسعت الأسكندرية من صنوف اللهو . .

إن قلبى خفاق مضطرب من ذكر هذا المصيف ، لقد قربت أوبتهم ولست أخاف المصيف بقدر ما أخاف أوبتها ، فأنا اليوم مطمئن إلى تقديرها اياى وحبها لى وأخاف أن أراها وقد لفتت مظاهر الاسكندرية قلبها عن صاحبها القديم .

Digitized by Birzeit University Library

أعوذ بالله ياصديقى كم أنا سيء الظن ، ان سميرة إن كانت من الناس فهى أجمل صور الانسانية جميعاً . إنى أتهمها وأظن فيها الظنون وبعض الظن إثم ، سأستغفر لها وأطلب عفوها . أعذرنى ياصديقي فأنا أحبها وأغار عليها وكلما رأيتنى بعيداً عن تفكيرها لا اشغل فراغ قلبها كما تشغل هى فراغ قلبى ثرت عليها فيما بينى وبين نفسى وأرسلت إليك أشكو ، على أننى واثق من جحودى بحبها فأنا أثور عليها وهى بريئة فلعلها مريضة لا تقوى على الكتابة او لعلها لا تجد متعة تحدثنى عنها على انها مشكورة سواء كتبت لى أو لم تكتب فانا لا أطمع منها بغير العطف والتقدير .

لقد التحقت بالجامعة وقبل طلبى بالمجان وقد كان لتفوقى بين الزملاء وذكرى والدى الطيبة اكبر الفضل فى قبولى بأخطر معهد فى الأمة . إن عزائى فى هذه

Digitized by Birzeit University Library

الحياة جميل فادع لى ياصديقى بالتوفيق . إن صاحبك يذكرك فى كل جارحة من نفسه . . .

* * *

٢٢ اكتوبر

أنا هنا عندعمى وفى أحضان بيته أعيش ، وقدبدأت أنظم حياتى بحيث لا أرضى لانسان على فضلا ، والحمد لله عندى ما يكفل لى حياة منتظمة وعيشاً رغيداً . إننى ياصديقى قنوع بما أنا فيه راض بأحكام الله نازل عند إرادته مطمئن إلى عطفه شاكر له فضله معترف بأياديه جميعاً

إننى أعلم أنى فقير ولست أشك اننى غنى بهذا الفقر فالحمد لله لم أبذل ماء وجهى لانسان فالذى بقى لى من تراث الذكرى يكفينى ذل النفس وبذل ماء الوجه .

إنى أحدثك عن هذا وأنت عالم به إنما يدفعنى إلى الحديث فى هذا الموضوع مؤامرة سميرة على كرامتى ،

Digitized by Birzeit University Library

كرامتى يا صديقى وهى الميراث الذى أبقته لى يد الأقدار بعد ما عبثت بكل ما ورثنى إياه والدى ، كرامتى التى أحبها وأعزها وأخاف عليها الاراقة ودمها عندى عزيز .

إن الكريم ياصاحبى إن صالت عليه الأيام أو لحق بجده العثار فهو كريم ما سمت نفسه عن مبتذل النفوس وربأت به عن فضلات الموائد وتنزه ضميره فلا يباع ولا يشترى ، لقد نظرت إلى سميرة لما عادت من الاسكندرية نظرة المدل فى أنفة وكبرياء وشكوت لها نظرتها وتمنيت عليها أن تغض هذا الطرف التياه رحمة بصديقها وكان بينى وبينها حوار ورجعت من الحوار معها بأننى فقير ، هى تقول ذلك ياصديقى وتعيب على الفقر ، أعلم ان ليس الفقير فقير الجمال ولا هو بفقير الترف وأعلم ان الفقير حقاً الذليل حقاً هو فقير الكرامة والشرف ، وقد حاولت ان أقنعها بهذا فلم تفلح محاولتى وخرجت من عندها

Digitized by Birzeit University Library

اضرب كفا بكف وقد خسرت كل ما كسبت .

لقد أثر فيها المصيف وأثرت فيها المظاهر وأزرت بها الكبرياء الفارغة ، هى تعنى بجمالها وتحسبه سلطاناً تداس له الكرامات ، ان ثغرها الباسم المتفتح عن در يخطف النظر وقدها المياس الذى عجبت لتكوينه وصوغه يد الفنان ، والفحمة التى لعبت بشعرها وهو فى مثنى ومرسل ولثمات التفاح التى أبت الا ان تترك على شفتيها وخديها نضرة الثمر ومقلتيها ولهما فى فتورهما السجدة ، كل هذا لا يعنينى فأنا أحب نفسها ولا أطمع فى جمالها بقدر ما أطمع فى كمالها . وانى أعلم أن جمالها لا بد أن تستباح كرامته فيختفى الدر من الثغر ويهزل القد على مر الدهر . ويعلو المشيب شعرها وتروح عن خديها حمرة الثمر ويخطف بهجة عينيها فرط السهر والذى يبقى يا صاحبى نفسها لا جمالها ولا دلالها . أليس من سخرية القدر

أن يكون الفقر معرة ومهانة وأن يكون فيه ذل النفوس البريئة الطاهرة وأن يكون المعذب والمهين تلك التي عبدت لها طريق الحب فأصبح محرابي الذي مكثت أرتل فيه معاني الولاء والوفاء . ألم أقل لك إني أخاف الأسكندرية إن هذا المصيف موضع للفساد ورجس من عمل الشيطان، لقد رجعت منه سميرة بعد أن هضمت حبها وإخلاصها لي وألقت بهما على شاطىء البحر ، إني ألاحظ على هذه الأسرة تغييراً كبيراً وكأني بهم قد اصطافوا في السماء مع الملائكة ورجعوا إلى الأرض ، فهم يحتقرون الأرض ومن عليها ، على أن أباها وأمها لا يزالان عند حسن ظني كريمين نبيلين رفيعي الاحساس .

إن سميرة في ثورة ولا أريد أن أغضب منها فأمها مريضة بقلبها وتنتظر الأسرة نعيها بين ساعة وأخرى.

لا تتألم يا صديقي من صاحبتي فاني أشعر أنها مخطئة

Digitized by Birzeit University Library

ولست أشك أنها ستحس خطأها . . .

* * *

١٤ ديسمبر

إنى سعيد بكتابك فقد كنت فى عراك دائم مع روحى ونفسى وشعرت اليوم ان الجرح الذى جرحته سميرة يكاد يندمل ، اننى لا اشك انها لا تزال طفلة فهى لا تقصد إيلامى فقد اعتذرت من أيام وأبانت قصدها فى جلاء ، لم تكن تريد ان احمل الفاظها على غير ما كانت تريد ، كانت تتمنى على الله ان أثرى فظننت انها تعيرنى بحالتى وأطلقت لنفسى عنان الهياج ، وكان عتابنا جميلا فقد سمحت لى بقبلة من يدها بيد أننى ياصديقى لا أزال أراها على غير عادتها ، سألت مرة عن أمها بالتليفون وكانت سميرة من رد علىّ وبادلنى الحديث وعجبت كيف تؤنثنى وأنا رجل وتخاطبنا ردحا من الوقت وقد اعتبرتنى

صديقة لها وسمتني (زوزو) فلما تقابلنا حاولت ان أفهم معنى هذا التأنيث ولكنها أبدت عذراً غريباً ، هي تعلم أنني أحبها فهي تريد أن تشبعني من حديثها وصوتها وليس لديها الشجاعة لنتحادث أنا كما أنا وهي كما هي لذلك تفسح لي مجال الكلام على ان أكون (زوزو) وهو الأسم الذي اختارته لي حين نتكلم في التلفون . . .

موضوع غريب وفكرة حديثة لم أعتدها ولم أسمع عنها من إنسان ، لها ما تشاء ياصديقي فلأكن (زوزو) أو لأكن من تريد سميرة ان أكون .

أمها تسير نحو الفناء بخطى فساح ، كم أود أن تعيش هذه الأم التي استعوضت فيها أمي ! كنت أود ان أحدثك عن الجامعة وشئونها ولولا اضطرابي في شئون سميرة وبلبلة فكري على أمها لكتبت لك في شأن جامعتنا

غير أنى أفضل ان أنتظر فرصة أخرى وأحدثك عن هذا المعهد الجليل . . .

* * *

١٤ فبراير ١٩٣٠

ماتت أمها يا صديقى ولبس الجميع السواد : إنهم حزانى يلطمون الوجوه ويشقون الجيوب وقد غدت سميرة فى ملابسها السود غادة صقلها الألم وأذوت بها الأحزان ، لقد بكيت كما بكوا ، بكيت على أمها مرتين مرة لها ومرة من أجل سميرة وهاأنذا يا صديقى أقتسم آلام حبيبتى وكم اود ان أحمل الألم جميعاً ! هى تبكى كلما رأتنى بجوارها وأبكى انا لبكائها وهى تسخو فى آلامها وتسرف فى هذا السخاء حتى علت وجهها الضاحك مسحة من الانقباض والهم ، وأحسبنى صديقها الوحيد المخلص كما تدعونى فى آلامها غير أننى أراها تسودثيابها وتطلى

Digitized by Birzeit University Library

جبهتها ! لقد غضبت علىّ لما طلبت إليها أن تقط أظافرها وتبطل طلاءها وتحبس نفسها عن الزينة والتأنق ولكنها ثابت الى رشدها ورجعت عن غضبها وأحست إخلاصى فيما أزعم وعلمت أننى لا أود أن تصبح مضغة فى أفواه الناس وأنت تعلم أن النساء فى مصر يعملن من الحبات قبابا بيد أننى كنت رفيقاً بها ولم أتألم من غضبها بل قبلت يدها معتذرا وأرادت أختها أن أقبلها حتى أسرى عن آلامها فقبلتها وأنا شديد الخجل فلم تكن المناسبة ولا قواعد اللياقة تدعو إلى هذه القبلة غير أننى استرخصت كل شىء فى سبيل الترفيه عنها وانتقاص أحزانها .

إننى حزين لها وسأبقى حزيناً إلى ما تشاء سميرة ، أقسم لك يا صديقى أننى أحبها اليوم أضعاف ما كنت أحبها قبل موت أمها . إن اباها الشيخ كليم الفؤاد وحالته

تطلب من الناس الرثاء . لقد خسر هذا الرجل فى تجارته خسارة فادحة وماتت زوجته وهى سلواه فى أشجانه وعزاؤه فى أحزانه وهو اكثرهم ألما وأشدهم حزنا لذلك أجتهد فى مواساته كلما زرتهم فى الصباح أو فى المساء .

إنهم يستحقون المواساة فلا أقل من ان تواسيهم واختص سميرة ياصديقى بعزاء يمضى بشىء من غمها ويرضى نفسها المعذبة . . .

* * *

٢ ابريل

إننى اهتم بها كما أهتم بنفسى سواء ، قد طلبت إلى ألا أكثر من زيارتهم حتى أتفرغ لدروسى وحدها فهى تعلم أن شئون الدراسة فى الجامعة مضنية كثيرة العناء وقد أرسلت تشكرنى على اعتنائى بها وحدبى عليها .

« صديقى الوحيد المخلص : إننى كلما تذكرت انك

تعيش نسيت آلامى جميعا ، إنى أشكر الله على مقدوره فلقد راحت أمى وبقيت انت وسأبقى مدى العمر شاعرة بحنانك وفضلك ومعتقدة أنك أنت وحدك الذى يتمثل فيك الحب الطاهر والوفاء النادر وسأكون لك ماعشت الحبيبة اليتيمة المخلصة ...»

الحبيبة اليتيمة المخلصة.. ألفاظ ثلاثة كلها آلام وآمال هى حبيبتى وفى الحب حياة ، وهى اليتيمة وفى اليتم آلام وهى المخلصة وفى الاخلاص جمال ... كم تأثرت لهذه الكلمات الثلاث ؟ إن هذه المعانى وسعت فى تضاعيفها المثل العليا فى الانسانية جميعاً ، إن سميرة ياصديقى شاعرة رقيقة الاحساس ولا تنكر جميل الناس فهى تشكر أحب الناس اليها وهى تعلم أن ليس بين المحبين شكران ، إننى أحبها وكثيراً ما وددت أن أملك الأرض ومن عليها وأقدمها ترضية لها فى أشجانها ودليلا صادقا لاخلاصى

Digitized by Birzeit University Library

ووفائى . إننى لها ما عشت وإن نفسى وقلبى ومالى — إن كان عندى مال — فداء لسميرة وللموضع الذى تدب عليه سميرة . لا تأخذ علىّ هذا اللين فى الحب فانى أستمد من هذا اللين قوة فى الحياة وحماساً فى الجهاد . إنها ياصديقى مصباحى الذى أسير على نوره وأطمئن إلى شعاعه ، إن تسع سنين تظل حبنا وتسمو به عن الغرض والسوء وأنت شاهد على ما فى قلبينا فلا تعجب لهذا الوفاء . . .

* * *

١٤ ابريل

أتعرف يا صديقى السفينة التى تعذبها الريح حيناً وترضى عنها حيناً آخر ؟ هو أنا ياصاحبى فى هذه الحياة فساعة أنا سعيد مجدود الحظ وأخرى مبتئس حزين ولو كان للأهرام أعجاز وبطون واهتزت اعجازها ورقصت

بين الناس لصدقت هذا على أن أصدق ان حياتى ستستقيم وأنأى عن الأسى والشجون فأنا موزع بين الألم والأمل مشطور بين الخيبة والرجاء . أجاءك نبأ خطبتها ل ...؟ هذا ما قالته خادمتها ، خطبتها لرجل غيرى . أنا الذى أقدسها وأعشق الحياة فيها وأين كان القسم وأين كانت الوعود وكيف راق لهم الزواج والدمع على أمها لم يجف بعد . كتبت اليها ياصديقى أذكرها بالعهود والمواثيق ، كتبت لها فاسمع ما كتبت « إن قلبك الذى تفتح على يدى لا يمكن ان ينسى تلكما اليدين ولا ينسى صاحبهما ولا ينسى الحبيب المخلص ، كم بودى ان يكون حبنا مثلا أعلى ولكنهم يأسرونك ويتصرفون فيك تصرفهم فى سلعة رخيصة تباع وتشرى بثمن بخس دراهم معدودات خبرينى ياحبيبتى لمن اكتب بعد ان تتزوجى والى من أتوجه بعواطفى وشعورى ؟ انا ياحبيبتى لم أخرج من

الدنيا الا بمتاع من الذكريات ثم رأيتك فأحببتك وفرحت لهذا الحب الذى اضاف الى متاع الذكريات متاعاً آخر هو أنت ياسميرة ؛ انت التى كنت أظن ان الله عوضنى فيك أبى وأمى وكل عناصر الوجود ؛ لقد أفل نجمى ياسميرة وأوحشت الحياة ولقد انطفأ نور شبابى ووقفت الأقدار ساخرة منى ضاحكة على .

هذا هو حالى ياسميرة أنفضه إليك مكسور الجناح مهضوم الجانب وليس لى معين إلا انت ؛ وانت سينعم بقربك رجل مهما تكن قيمته فى الحياة ومهما يكن ماله ومهما يكن جماله إن كان جميلا فستقربين منه بجسمك ولن تقربى منه بروحك .

وحياتك عندى تخبرينى ياسميرة إن تزوجت غداً هل سأكتب لك مثلما كتبت واكتب اليوم وهل سأراك ونتحدث معاً ؟ لا ياسميرة سيأخذك الرجل الذى يتزوج

Digitized by Birzeit University Library

منك أسيرة له وحده ويقتل روحي ويميت عواطفي ويخمد حماستي ولعله مجرم من غير إصرار فهو لا يعلم ماينني وبينك . . . ثم يا حبيبتي هل يرضيك عذاب صاحبك؟ صاحبك الذي ما أحب غيرك ، صاحبك الذي يهتف باسمك ويتغذى بالأمل فيك .

لست أشك أن روحك الطيبة الشريفة وأن نفسك السخية الرحيمة ستحنو على وتتحسر لي وأن عينيك الهادئتين ستختلج فيهما الدموع وسيخفق فيهما البكاء ثم يذكر الخدان قبلاتي البريئة الطاهرة ، ولست أشك أنك ستعضين على شفتيك ندما على حبيبك الأمين ، هاتين الشفتين اللتين قبلتهما مرة واحدة قبلة الحب والولاء ، ولست أشك أن يديك حين تمسكان هذا الكتاب ستضطربان ألماً وحسرة على الذي قبلهما مراراً

Digitized by Birzeit University Library

قبلات التقدير والاعجاب ويالينني ضممتك الى صدرى مرة حتى كان يحس قلبك دقات قلبي فيتحسر على حبيبك الذى استعبده هذا القلب السليم .

وحق الحب الذى بيننا ان تبكى قليلا ياسميرة ، إبك فى آمالى التى ضاعت ، إبك فىّ المثل الأعلى فى الاخلاص والوفاء ، ودعى معى ذكريات الطفولة وآمال الشباب ، ابك ياصديقتى حبيبك بعد أمك ، لقدماتت أمك بارادة الله واليوم أموت أنا برغبتك وبارادة أهلك . ألا يمر بخلدك حبيبك ؟ ألاتجلسين ساعة تفكرين فى مستقبلى ؟ أرجوك ياحبيبتى وأتمنى عليك ان تقعدى إلى نفسك وتشرحى لها هواى وهواك وانفضى لها حالى وحالك وخبريها بآلامى لعل نفسك تحن وتلين وتذكر العهد الناعم السعيد .

إن الله الذى وهب الناس عاطفة الحب وملأ قلوبهم

Digitized by Birzeit University Library

إيماناً به قد بعثك الى الحياة طاهرة وفية ليدرس الناس فيك معانى الحب والايمان .

إن روح أمك لا بد ان تتألم لآلامى وتتأثر لحالتى لأنى أعلم ان الأموات يشعرون اكثر من الأحياء وهم فى الملأ الأعلى يشاهدون قصة الحياة .

ليس حبنا تجربة ياسميرة إنما هو الحياة ، إن حبنا نوع جديد لم يتعلمه الناس ولم يشعر به إنسان فهو حب الطفولة وحب الشباب وكم يكون جميلاً أن يبقى حبنا الى الهرم والكهولة لنكون أحدوثة وعبرة ومثلا أعلى فى الوجود ؟ يا حبيبتى أذكرى الخرطوم يوم كنا نلعب ونرتع صغيرين لاندرى ما الهوى .

سميرة ياحبيبتى أكتبى لى طمنينى على ان حبنا باق اكتبى وأطيلى فى الكتابة واسمعينى نشيد قلبك ورقة روحك ولواعج نفسك ثم اشعرينى بأنك لى ولى وحدى

إن كل شيء فى سبيل الحب يهون فاسمعينى دموعك فى قلمك وأرينى إخلاصك وبرهنى على ان كلينا مثل أعلى للآخر . »

هكذا جلست فى حجرتى المتواضعة وقد انحنيت على مكتبى البسيط وكتبت لهاهذا الكتاب ، لاتنس أننا على أبواب الامتحان . سوف أحدثك عما سيتم فى أمرنا وكم أود ان يرفق بنا الزمن ! أدع الله ياصاحبى أن يشملنا بعطفه ورعايته . . .

* * *

١٤ مايو

« حبيبتى سميرة : مضى على كتابى السابق ستة أسابيع وكنت أؤمل رداً عليه يشفى غلتى إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وكم أستعذب الألم منك ياسميرة ! لو تعلمين مقدار التفكير فى ردك على لعذرت صديقك

Digitized by Birzeit University Library

حين يقلق راحتك بكتاب آخر بيد أننى أشعر أنك تستعذبين أنت الأخرى كتابتى لأنها صادرة من وحى نفسى ومن صميم قلبي ، وكم يكون لذيذاً أن تقف فتاة لتسمع نفساً تستجديها وقلباً يستبرىء حنانها وعطفها !

إن طفلك — واعذرينى فى هـذا التعبير — أقول طفلك يقف ببابك سائلا وما تعود السؤال من إنسان ، إن طفلك العزيز عليك يشقى ويسأل ويرجو ويأمل فى رضاك وفى إخلاصك وفى حبك فهـلاّ ترحمين ؟ إننى أكتب اليك وليس معى شىء جميل أستلهم منه البيان اللهم إلا صورتك التى ما برحت مطمحى فى خيالى وتفـكيرى ، صورتك التى تزايلنى فى الصحوة والغفلة ، تلك هى الجمال الذى استغرقنى ومنه أستمد الوحى والالهام ، فهلا فكرت فى لحظة فى النهار أو مررت بأحلامك فى الليل ؟ سميرة يا حبيبتى ومثلى الأعلى : أهكذا يرضيك

أن تكوني جلادي وتفتكي بصديق الطفولة والشباب فلا ترحمين ولا يرحم أهلوك ؟ إلى من ألجأ وبمن أحتمي؟ اليك ياسميرة أشكو دلالك وإليك أشكو صدك وهجرانك وإليك أشكو أهلك وأحبابك .

سميرة ياحبيبتي إجعلي حبنا حياة وهناءة ولا تجعليه مأساة . واذكري أن حبيبك يكتب اليك من صميم نفسه كما يحبك من صميم قلبه .

أتمنى عليك أن تقرئي ما يكتبه المحبون وما توحي به نفوسهم الى صديقاتهم ولعلك قرأت ما كتب ! فبالله أينا أصدق إحساساً وأبلغ إخلاصاً ونبلا ؟ لست أشك أن غيري من المحبين لا يكتب مثلما أكتب ويترجم لغيرك لواعج نفسه كما أترجم لك ، ذلك لأني أحبك وأحبك وحدك وأولئك يتخذون من الحب ملهاة يضيعون بها الوقت فيكتبون لحبيباتهم اليوم ما يكتبون لأخرى

غداً ثم يسرفون فى ذلك الدجل فيكون أسلوبهم واحداً لكل فتاة يغدرون بقلبها والمسكينة تظن أنهم يعرفون الحب أو انهم يحبون ويعشقون .

سميرة ياحبيبتى : إحفظى ما أكتبه لك فلقد يكون حبى مثلا لغيرى يخطو على هداه ، احفظى رسائلى ففيها نفس بريئة تتحدث وفيها قلب مرهف يتعذب وفيها روح وحياة ، قدرى رسائل صديقك الفقير ولست الفقير الذى تظنين إنما أنا فقير حبك وعطفك لأنى أعرف ان الحب جميل فى الكوخ كما هو جميل فى القصر حلو مع الفقير كما هو حلو مع الغنى ، لست قبيحاً يا سميرة ولست غبياً وليست فىّ طباع السوء ولست ثقيل الظل فلم هذه القسوة على من أحبك تلك الأعوام الطوال ؟ إنقذينى ياحبيبتى من هذه الخواطر القاتلة واكتبى لى وأطيلى فى الكتابة والحب لا يعوزه البيان ، طمنى

نفسي القلقة عليك ، كذبي أمر زواجك واثبتي أنك صادقة فيما وعدت من ولاء وحب وانك لي وأنا لك »

ها هي ذي رسالتي اليها بعد ان أديت الامتحان ولا أزال أنتظر كتابا منها يهدىء روعي ويقر اضطرابي...

* * *

٢٨ مايو

« . . لقد قرأت رسالتيك وآلمني أنك شديد الحيرة، وآلمني جداً أنني أحير منك في هذا الزواج المباغت . إنني سأرفضه وسأحاول ان أنتصر ، إن أبي يتصرف بي كسلعة كما تقول ولكنني لا أزال لك يا صديقي وان قلبي لا يملأ فراغه سواك ، إنني لا أنظر إلى مال الخطيب ولا جماله المزعوم فثق من حبيبتك المخلصة وابقني عند حسن ظنك . »

لقد استلمت رسالتها يا صاحبي وأقسم انني لم أنم ليلة

Digitized by Birzeit University Library

استلامها فقد كنت فرحا شديد الفرح وأرسلت اليها كتابا لنحدد ساعة نتقابل فيها ونتحدث فى موقفها إزاء هذا الزواج ، ونزولا على رغبتك أكتب لك هذه الرسالة كما طلبت منى أن أكتب لك كل خطاب أرسله إليها .

« أحمل كتابى عشرات القبل وفى القبلات عبير وفى العبير قلب ينبض بكل مافى الوجود، وما الذى يحتوى عليه الوجود ؟ ؟ هو أنت يا حبيبتى ، أنت الأمل الحلو ، المطمح السامى الذى أسرح اليه البصر وأطيل فيه النظر حتى تواتينى نهايته فلا أجد إلا نور اليقين متمثلا فى ابتساماتك البريئة الطاهرة ولا أشعر الا بخفقات قلبك وكأنى بها تحدثنى أن فى الوفاء وفاء وأنى الكفيل بحبك القمين باخلاصك وحسبى ياسميرة ما أرى منك وما أسمع .

وقد أخذت أتلمس فى طيات رسالتك نوعا من التقدير

Digitized by Birzeit University Library

وقد أحسست فى نفسك ثورة بين الحق والباطل : بين المعنويات والماديات . بين الجوهر والمظهر . وأخذت أفكر ثم أفكر فى أمر هذه الثورة الجائحة وقد استخلصت من كتابك لى أنك تتعذبين ، أتوافقين الأهل على ما يودون أم توافقين ....؟ وللأهل دولة وللأهل سلطان وصاحبك يسمو بك ويحبك وصاحبك يؤلهك ويعبدك والأهل يقولون بالغنى والمال وضميرك الحى اليقظان يؤكد أن صاحبك وهو طيف من الحب الرفيع لأسمى من الغنى ومن المال . وكم أنا متألم ياسميرة لأنك تعيسة مضطربة ! لذلك أرجو يا حبيبتى أن تحددى موعداً فى بيتكم لنتقابل منفردين ونضع خطة الحرب وخطة الهجوم حتى نصل إلى مقصدنا ونهىء لنفسينا طريق السلام »

وتقابلنا ياصاحبى وكانت مقابلتنا سريعة شديدة الخطر

ولما لم يسعفنا الزمن بفسحة الحديث عرضت علىّ ان نتقابل خارج البيت عند صديقة لها . ولما كنت أعلم أن هذا مستحيل حملت على نفسها عبء هذه الاستحالة وأكدت أن فى وسعها أن نتقابل خارج الدار !

والحق أنى لم أرحب بهذه الفكرة الخبيثة ولم أرض لها هذا الخروج ، إنها فتاة كريمة وأهلها قوم محافظون وليس يرضينى أن أعبّد لها طريقاً وعراً كهذا الطريق لذلك رفضت ياصديقى وغضبت من هذا العرض ، وأحست هى غضبى وأقسمت أنها لم تعرض هذه الفكرة إلا ترضية لى وأنها قد كانت ترجو لقاء من غير رقيب حتى تحلو قعدتنا ونسرق من الدهر الشحيح ساعة تفضل العمر .

إننى أكره منها هذا التفكير وأحس فيه شيئاً من المجون ، أتحمل حبنا إلى بيت آخر على مسمع ومرأى

من صديقتها ؟ وصديقتها هذه ما وظيفتها فى هذا الحب؟ إن الحب فى أوساطنا يا صديق جريمة وأنا لا أريد أن أعرض هذه الجريمة المزعومة على الناس . . .

* * *

٥ يوليو

لقد علمت ياصاحبى من أمر صديقتها ماخيب رجائى فى صديقتى ، كنت بالأمس عند زميلة لى شقراء من عنصر طيب على شىء من الجمال وشىء كثير من خفة الروح ، هى فتاة مرحة تجدد فى حياتها وتخلع عن نفسها تقاليد الماضى العتيق ، وهى شابة صريحة تسرها صداقتى وتسمنى بطيبة القلب وتأخذ على وثوق بالناس ومصادقتهم جميعاً .

كنت أزورها وسألتنى عن سميرة لأنها تعلم مابينى وبينها وكنت أعرف أن زميلتى على علم بأخلاق صديقات

Digitized by Birzeit University Library

سميرة فسألتها عن صاحبة حبيبتي ولشدّ ما آلمني جوابها فهي تصف هذه البنت بأحط ما توصف به امرأة ، إنها تعتبر بيتها بؤرة للفساد. قالت « إن هذه البنت تجمع في بيتها بنات الناس وتأتي بأصدقائها وأقاربها من الشبان حيث يجتمعون بالفتيات ويلهون لهواً فاجراً » ثم عقبت على هذا الكلام بصراحة غريبة إذ أنها « تأسف لسميرة ولا ترضى لها هذا الاختلاط المزري بكرامتها فقد شهّرت بها صاحبتها بعد خصام نشأ بينهما حتى إن الناس أخذوا يتحدثون عنها في المجالس والمجتمعات »

* * *

١١ يوليو

لا دخان بلا نار . لقد قابلت سميرة وحدثتها عما سمعت ، في الحق لقد وجلت أولا وخفت ان يؤلمها كلامي فاخترت لها أرق التعبيرات وأندى الألفاظ ولم

تكن تتوقع هذا الموضوع ولم أكن أجرؤ على أن أتهمها إنما طلبت إليها أن تنفى هذه القصة فبكت ولم أكن أستطيع ان أراها باكية ولا أدرى كيف بكيت معها وكنت أكتفى بدمعها نفياً لما سمعت غير أنها أقسمت بشرف أبيها أنها رأت شابا عند صاحبتها وأنها كلمته وتعارفت به بيد انها لا تعلم عنه شيئاً ولم تجلس وإياه فى مكان واحد فقد كان تعارفهما أمام بيت صاحبتها وأنها اعتذرت لها ان ليس فى مقدورها ان تبقى معهما لأن أباها فى البيت يطلبها .

هى صادقة ياصاحبى فيما تقول : إنها تقسم بشرف أبيها أن ما تقوله صديقتى كذب واختلاق ، والحق إنى كرهت هذه الصديقة التى أرادت ان تفرق بيننا ، إنها فتاة شريرة ماكرة ، إن سميرة حق خالص وفكرة سامية ، وقد غاظ صديقتى أن تكون حبيبتى هكذا وأن

تقتعد من قلبى حبته فأنت تعلم غيرة النساء من النساء .
لقد ظلمت صاحبتى فى قصة كاذبة ولـكننى اعتذرت لها وصفحت عنى وناولتنى يدها فقبلتها وطمعت فى قبلة من فمها فلم ترفض وخرجت من عندها سعيداً وهى هادئة مطمئنة . ولـكن يا صاحبى كم أنا متألم من قبلتى لها ! إننى أشعر فى نفسى اهتياجا كلما ضممتها إلى صدرى أو قبلتها قبلة عميقة وسوف أجتهد ألا أقبلها حتى لا تهتاج نفسى هذا الاهتياج المرذول ولا يشوب حبنا نقص ولا شر .

* * *

١٣ يوليـو

كنت أشرب كوباً من الماء وكانت تشرب مثلما أشرب ، ووصلت سميرة كوبها بكوبى ودقت عليها دقات موسيقية فيها شىء من الدلال وقالت شنشن . .

Digitized by Birzeit University Library

ولم أكن أدرى معنى شنشن ولست أشك أنك لا تعلم معنى هذه الكلمة فقد رحت إلى الصحاب جميعاً وسألتهم فى معنى هذه الكلمة بعد أن رفضت سميرة ان تحدثنى فى أمر شنشن وقد ارتج عليها الحديث واستعسر عليها القول وبانت عليها أمارات الارتباك ، سألت الصحاب ولم أظفر منهم بمعنى قريب أو بعيد ، كلهم جاهل بهذا الفن من الوصال ولكن زميلا قديماً من زملائى فى معهد الفرنسيين بالزيتون وارثا غنياً يستمتع بلذاذات الحياة جميعاً حدثنى فى أمر شنشن ولولا ارتباك سميرة ما تلهفت على معناها ، قال زميلى القديم إن شنشن كلمة يستعملها زوار الحانات وهم ينتهبون من الوقت ساعات لذيذة يملئون فيها بطونهم بالخمر حيناً ويصلون فيها الشفاه بالقبل أحياناً .

ولست أدرى ياصاحبى ماعلاقة شنشن بفتى لم يذق

الخمر قط ؟ وما علاقة شنشن بسميرة وهي أبعد الفتيات عن الخمر والحانات ؟ ولم أشهد أحداً من أسرتها يحتسي الخمر أو يدخل الحانات ثم ما كان أبعدنا من قبل والأحضان ولو كنا على قبلة في ميعاد فلست أشك أن القبلة بريئة لا يسمو بها الانفراد ولا تحلّيها الخمور . ولست أدري من أين تعلمت سميرة شنشن وليست سميرة الفتاة التي تعلم لون الخمر أو طعمها فكيف علمت أدق المعاني في فن السكر والخمور ؟ لقد جلست مع الناس ورأيت منهم من يشرب الخمر ويثمل منها ولم أسمع يوما (شنشن) تدور على لسان واحد منهم ؟ وسميرة لم تجالس مثلما جلست ولم تشهد ما شهدت فمن أين جاءها نبأ شنشن ؟ ولست أشك أن مجال الحياة في الاسكندرية مهما يمجن ويستهتر الناس فيه فهو بعيد عن شنشن . وسميرة لم تحس غير البحر

Digitized by Birzeit University Library

ولم تشهد غير السينما والبلاج وليس من المعقول مطلقاً أن تتجاوب شنشن صدى البحر والسينما والبلاج . . .

فمن أين اذاً جاءها هذا المعنى وكيف تفهمته ؟ وهل وصل سوء ظنها بي إلى أن تقول شنشن لشخص هو أبعد الناس عن شنشن وأقربهم إلى قلبها الرفيع ؟ لقد وصلت ياصاحبي إلى معنى شنشن ولم أصل بعد إلى من علم سميرة هذه (الشنشن) وليس في مقدوري أن أسألها عمن علمها شنشن حتى لا تغضب علي أو تتألم مني . إنني ياصاحبي لا أريد أن أثير اشجانها أو أبعث آلامها الخامدة لتقل ما يحلو لها من الأقوال فهي لا تفهم معنى شنشن لأنها ساذجة ليس في خلقها ضعف ولا في ضميرها خور .

* * *

١٨ يوليو

قابلت سميرة يا صاحبي وانفردنا بنفسينا وتطارحنا

الهوى لماما يحدونا الطهر ويحوط بنا العفاف ، لم أقبلها ولو أنى كنت أشتهى ألف قبلة فانا أخاف اهتياج مشاعرى واضطراب نفسى لهذا الاهتياج .

هى لاتزال تحن إلىّ مثلما أحن إليها ، إنها تقسم بالله أنها لى وأنا لها وحاولت أن أذكرها بحالتى المتواضعة وأننى لا أستحق منها كل هذا التقدير . أتعرف ماذا قالت ؟ تقول إنها تحتقر المال وتحسبه تحت حذائها فى شئون حبنا وأنها تعتقد ان كل نقص أحسه فى نفسى يهون ما بقينا صديقين نلتمس فى صداقتنا عناصر الوفاء إنها تتحدث وفى كل لفظ حكمة وفى كل معنى حنين ، تقول إن الانسان يطمع فى حياته أن يكون مستريح البال متيقظ الضمير وانها لتأكل معى الملح إداما خيراً من ان تأكل أطيب الطعام فى قصر منيف وتعتقد أن حبنا خير

Digitized by Birzeit University Library

غذاء لعواطفنا وضميرينا وأن غـذاء العواطف والضمير أجل من غذاء البطون والأجساد .

أرأيت كيف أرهفت سميرة فى مشاعرها وكيف أحست الوجود ؟ إن موت أمها أحيا فيها أنبل العواطف وأسمى المعانى ، تهزأ بالغنى وتهزأ بالجمال وترغب فى جمال الروح وغنى الضمير : أين فتيات اليوم من جمال الروح وغنى الضمير ؟ لقد تحررت المرأة يا صاحبى . لم تتحرر من رق البيت وظلم الأهل وجـور الزوج فحسب بل تحررت ايضاً من ضميرها وكرامتها . . !

إننى أميز فى حبيبتى كرامتها وأعبد فيها عفتها ، إن موطىء القدم الذى تدب عليه سميرة لأغلى عندى من فتيات اليوم جميعاً . كم هى جميلة وكم هى حرة عفيفة !

أذكرها ياصاحبى فهى غرس يديك وأذكرنى فيها التى تسمو بى اليها واذكر فيها المثل الأعلى وانس

جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

فيها كل رذائل الحياة ، إن صديقك ممتع النفس بتلك النفس . .

* * *

٢٣ يوليـــو

كنت أطالع ولن تأخذ علىّ هذه المرة ما أطالع فأنت تتهمنى بالصدوف عن آدابنا العربية بيد أننى أقرأ اليوم من أدب العرب أمتع ما فيه من أدب ، أقرأ ما قيـل فى البعثة النبوية . وقد قرأت كثيراً ولم يستوقف خاطرى إلا قصيدة واحدة وليست القصيدة أمتع ما قيـل وما قرأت إنما لبيتين فى القصيدة أحسستها أهم ما طالعت ؛ هى قصيدة كعب بن زهير قالها فى حضرة النبى ، والقصيدة يحبها قوم كثيرون ويعشقها الشيوخ من الأزهر وغير الأزهر لأنها قيلت لرسول الله ومن أجله أبدعها كعب ، إننى لا أرغب فى أن أحدثك عن القصيدة ونواحيها

الفنية ولا أسلوبها ولا عن البواعث التى دعت كعباً إلى إنشادها بيد أن فى القصيدة بيتين قد استوقفا نظرى وفكرى وكان لهما علىّ رهبة وأخلفا فى نفسى اضطرابا دائماً ، يقول كعب فى حبيبته :

ولا تمسك بالعهد الذى زعمت الا كما يمسك الماء الغرابيل
ولا يغرنك ما منت وما وعدت إن الأمانى والاحلام تضليل

إن فى البيتين كما ترى معانى أخاف منها وأرهبها وقد حاولت عبثاً أن أفهم غير ما يقصده الشاعر أو أحور قليلا فيما يرمى اليه كعب حتى أخلع عن نفسى اضطرابها من هذين البيتين ، ولما لم يسعفنى الفكر فى تفسير ما يقصده صاحب القصيدة رحت الى سميرة ، رحت اليها وأنا ثائر على القصيدة وصاحبها وشكوت اليها ثورتى وفسرت لها معانى البيتين فضحكت منى وطلبت إلى ان أنسى البيتين وقائلهما ما دامت هى تبرهن لى فى

Digitized by Birzeit University Library

كل نفس من أنفاسها معنى جديداً من معانى الوفاء والولاء ومضت تهزأ بالشعر والشعراء وتسخر من أحلامهم الضعيفة وتتمنى علىّ ألا أنهج نهجهم وألا ألقى بالا لهذه السخافات .

ولا أطوى عنك شعورى فقد فرحت ونسيت فى حضرتها بيتى الشعر وكل ما يمت الى الشعر بصلة أو نسب وكدت أطفر بها من شدة الفرح ؛ ورأيت فى عينيها سحراً لم أشهده فيهما من قبل وجذبنى اليها روحها وقبلتها قبلة مؤثرة تهيبتها أخيراً وعلمت أننى قد مسست قداسة حبيبتى فى هذه القبلة العميقة

إلتقت شفتانا ياصاحبى ومضينا فترة طويلة ونحن نتناجى بقلبينا ، وقد خفق صدرانا واقترب عنقانا ، وأحسسنا الهواء يلين فتندت الحجرة وعرقت جبهتانا وانسحبت آسفاً وهى تضحك ! !

Digitized by Birzeit University Library

ومتى عرفت هذه القبل ؟ هذا هو سؤالها ولم أنتبه إليه وأنا بجوارها فقد كنت خجلا من هذه القبلة الحلوة المرة ! إنني لم أعرف معنى هذه القبلة ولم أقبل فتاة سواها ولـكن متى عرفت هي هذه القبلة ؟

إن قبلاتي لها لا تكاد تلمس إهابها ولا تكاد تستوى على موضع من وجهها أللهم إلا تلك القبلة العميقة الماجنة إن هذه القبلة جاءت عفواً من غير قصد ولـكن سؤالها لم يأت عفواً فله بواعث وله أسباب . إنني محير يا صديقي في أمر سميرة ولقد أملتني هذه الحيرة وليست أعرف نتيجة هذا الحب المضطرب الذي يسبح بين الشك واليقين

***

١٠ أغسطس

زرت يا صاحبي قريبة لي وهي فتاة عليها مسحة من الجمال وتجيد الحديث باللغة الفرنسية الى حد بعيد وتعنى

بشعرها وأظافرها وطلاء جبهتها أكثر مما تعنى بشئون الدرس وشؤون البيت وأعلم ان هذه الفتاة تميل إلى بعض الميل . . ! ولا أزور هذه القريبة إلا غراراً حتى لا أطمعها فى حب أو أذكى فيها هذا الحنين ، جلست الى الفتاة ولم تكن تعلم شؤونى مع سميرة ولم تأخذ الحديث كما أحب ، قالت عن صديقتى إنها وهبت قلبها لفتى من الأثرياء ، هو تمثال من الشمع نحتوه من عناصر الجمال طويل فى استقامة ، معتدل فى امتلاء ، سقيم فى تفكيره ، له رأس فارغ كرأس الدجاجة ، ليس عالماً ولا متعلماً ، وليس جاهلا أو غبياً فهو أقل من أن يوصف بالجهالة والغباء . !

لقد زعمت قريبتى أن صاحبتى تعطى من نفسها لهذا الفتى الطارىء على قلبها أكثر مما تعطى صاحبها الأمين على حبها ، وأنها إنما تضع الأمور فى نصابها يوم يشغل

فؤادها مثل هذا الفتى الموانى فى حبه الغنى بجاهه وماله

أبيت أن أصدق الجريمة أو أعترف بالمجرمين ، ولكنها أمسكت بيدى فى ساعة محدودة ، ودخلت بى إلى مكان قفر موحش يستغرقه الهدوء . وكان هناك من العاشقين من ركبوا أقدامهم وكان منهم من غاص فى سيارته فلا تسمع فيها إلا حركة تترجح بين الهدوء والاضطراب . وبينما كنت أدرس هذا النوع من الانسان أشارت قريبتى بيدها إلى سيارة لم أكن أتبين لونها لبعد الشقة بينى وبينها ورأيت خلال الأشجار الباسقة فتاة تسرع الخطى مضطربة ترى فى كل ما حواليها شكا وتحس فى حيرتها الخطيئة !

ومرت السيارة أمامنا ونحن فى خفية . وتبينت وجه حبيبتى وقد رأيت ذيلها العطر وقد أقفل عليه باب السيارة يضطرب ويخفق ولم يكن طربه من الهواء إنما كان

الذيل يلطم ويضج من خطيئة الحبيبة الوفية الطاهرة ؟؟

ومضيت من المكان بلا وداع وقصدت إلى صاحبتى وأنا مزاج من الألم والأمل خليط من الهدوء والهياج فوجدت أباها فى البيت وحده فجلست اليه ومكثنا نتحدث وهو ينفض لى حالته الراثية فقد قعد به المرض عن الالتفات إلى شؤون تجارته ومضت أمور حياته خاسرة فى كل ميدان فسألته عن بنته فقال إن سميرة ذهبت إلى الطبيب ليعود أسنانها .

وفى ساعة كانت الحياة كلها سوداء : أليل أسود وفراش البيت أسود دخلت سميرة فى ثيابها السود تكاد تقفز المساحيق من وجهها وجاءتنى ضاحكة باسمة تحيينى تحية الواثق منى بيد أن وجهى تجهم وثيابى ضؤل وانفردت بها وحملت عليها ولم تضج من هذه الحملة ولم تشك بل دعت دموعها فواتتها سريعة فى غير عنف وأقسمت أنها

Digitized by Birzeit University Library

صادقة فيما تزعم وأن عينى كاذبتان ولا أخفى عنك فقد بكيت لها وصدقتها فى هذا القسم الخطير

وكانت حبيبتى صادقة فى قسمها وكانت السيارة تحمل فتاة غيرها فقتاً لقريبتى ، ألم تر كيف أقسمت سميرة أنها كانت تعود أسنانها ؟ إن سميرة صادقة ياصاحبى غير أننى أمقت الظروف التى تجابهنا فى خطواتنا فارج الله أن يبعد دعاة السوء عنا حتى نصل إلى آمالنا ونحقق رغباتنا..

* * *

١٥ أغسطس

أبوها مريض كثير الألم بيد أنها لا يهمها هذا الهم كانت تتحدث فى التليفون ولا أدرى كيف أشرح لك طريقة الحديث ، لم تكن ترد على محدثها إلا قليلا جداً ومضت تتحدث نصف ساعة وأبوها يسأل عنها لتراقب شئون مرضه وطريق دوائه . ولما فرغت من

Digitized by Birzeit University Library

الحديث فى التليفون سألتها فى شىء من الجرأة عن محدثها قالت صديقة لها فى المدرسة ! وقد كانت سميرة معها فى الصباح فما الداعى إلى هـذا الحديث الطويل فى المساء ؟ وإذا كان هناك داع فلست أشك أن الداعى لا يطلب من الوقت نصف ساعة ، وإذا كان الداعى يطلب من الوقت نصف ساعة فلم كان الحديث من ناحيـة واحدة ولم لم تتحدث سميرة إلا حديثاً قصيراً لا يفهم منه معنى أو حديث ؟ فـكانت ترد على محـدثها بالسالب مرة وبالموجب أخرى .

إنه يؤلمنى أن تكون سميرة شديدة الاهتمام بصديقاتها أكثر مما هى شديدة الاهتمام بوالدها المريض . . .

* * *

٣١ أغسطس

وجلست إليه فى حجرة مكتبه أشرح له خطورة ما

Digitized by Birzeit University Library

حملتنى سميرة : كنت أحمل منها رسالة له وقد أمليت عليها هذه الرسالة فى بيتها قبل أن أغادرها إليه . وقرأت له الرسالة ثابت الجأش كما لو كنت فى عزاء . وناولته إياها فمزقها ثم ألقاها فى السلة .

غضبت لكرامة صديقتى وطويت الغضب فى نفسى وسألته أهذا جواب رسالتها ؟ قال « ليست أول فتاة أعرفها وليست بأخراهن » ثم أخرج من مكتبه رسائلها وناولنيها واحدة فواحدة ولم تكن تهمنى هذه الرسائل إنما كنت مشغوفا بما تضمنته من حديث . كان هناك خطاب صنواً لخطاب عندى ، وكانت الخطابات جميعاً تحمل أسلوبى وطابعى واجترأت سميرة على صداقتى وولائى وأسفّت فى لعبها فلم تتورع ودعته فى كتاب من هذه الكتب بصديقها الوحيد المخلص كما كانت تنعتنى فى الخير والشر . كان لطيف الحديث معى ، هو فى سنى

Digitized by Birzeit University Library

أو يزيد قليلا . وقد عجب لسميرة تغيرها السريع وراح يقص علىّ كيف قابلته من أسبوع وكيف كانت تمنيه وتهبه من حديث الحب ما حببه فيها مخلصا فى غير دجل وأنشأ يقص على مغامراته مع الفتيات وكيف كن يتعلقن به ويعجبن بسيارته ، وقد كنت أستمع له وهو يتحدث عن مقابلته لسميرة وتذكرت ذلك اليوم حين حملت هدية لها فلم أجدها فى البيت وانتظرت حتى جاءت تسحب على أذيالها خطيئة الأبد ! وقد رد سائلها وصورها وأسدل ستاراً على خطيئتها فى هذه الرسائل المبعثرة ، وشكرت له هذا الفضل ، ولم يكن يعلم من أمرى شيئاً فقد أوهمته فى رسالتها أننى قريب لها وصديق حميم .

وحملت نفسى اليها حملا وكنت كلما تقدمت خطوة تراجعت اثنتين ، فقد احتقرتها . وخجلت لها فى خطيئتها

Digitized by Birzeit University Library

اكثر مما خجلت هى ... ولما تقابلنا غضضت البصر وهو أسيف عليها وأعطيتها صورها ورسائلها التى كانت عند صاحبها .. والتى كانت صورة لما كان عندى لها من صور ورسائل : تلك الصور والرسائل التى حملتها اليها وكنت أحفظها فى قلبى ، سلمتها رسائلها وصورها التى كانت لها ذكريات حلوة جميلة وأنا أحاذر أن يضنيها صدى أو يؤلمها هجرانى .

* * *

٣١ ديسمبر

وصلنى كتابك ، وقد تلمست فى تضاعيفه ثورة منك على صديقة الأمس وأحسست فى طياته أنك تأسف على هذه النهاية وترغب منى أن أنتقم لقلبى الكليم : إنك تكرهها وتمقتها وتود الانتقام منها .

لا ياصاحبى ، إننى لا أعرف كيف أحببتها ولا أعرف

Digitized by Birzeit University Library

كيف أكرهها فان قلبى لينفجر إن حفظ لها حقداً ، وإن روحى ليهفو إليها كلما استعرضت هذه الأيام الحلوة التى أنست فيها إلى عطفها وحنانها .

لقد صفتها قطعة من نفسى فأبت أن تعيش معى وثارت على الصائغ الذى أفنى فيها شبابه ووضع بين يديها آماله وأحلامه . . .

لقد شاءت الأقدار أن ينعم بقربها من يكبرها سناً ويصغرها عقلا ويسعى فى الدنيا على هامشها ويقطع الزمن لا يعنيه ولا يفهمه . . .

لقد تزوجت سميرة ياصاحبى وما أحب أن تشمت بها فكلانا أولى بالعطف والرثاء .

أقسم لك أن قلبى لا يزال يميل إليها وأن روحى يعطف عليها فقد نسيت كل شىء وحملت الشهور

Digitized by Birzeit University Library

الأربعة الماضية زلاتها جميعا فى طى الغفران والنسيان .

لا تمقتها يا صاحبى فان الخطيئة واهية ، ولا تظامها فانها لم ترتكب إثماً ولم تأت إداً وإنما كبت فى هفوة ، وزلت فى غفوة ، وندمت على عبث يغتفر لصبية فى سذاجتها ، فهى طفلة بهرها النور ولفتها الحب الى معانيه فأخطأتها من غير قصد ، وطوت بذلك صفحة ستبكى على طيها يوماحين تذكر بياضها الناصع وأرجها الفياض...

لم يكن يعرف سميرة صاحب ولا صديق ولن يعرفها صاحب ولا صديق ولكنها صارت قصة يتداولها الناس ومعنى يدرسون فيه فتيات العصر وما هن عليه من قلب فارغ وعقل ساذج .

هى قصة ولو ان الناس لا يعرفون أبطالها ، وهى حياة حلوة ولو ان الناس يحملون على مثل هذه الحياة .

لا يا صاحبى إنهم يخطئون إن حملوا على سميرة فقد

كانت ينبوع سعادتى عشرة أعوام ؛ لقد كانت عاملا أزكى حماسى وأيقظ حنينى الى المجد والحياة ؛ وكنت رفيقاً بها وكانت مثلى الأعلى غير أنها تجنت وأسرفت فى التجنى.

واليوم تسألنى فى كتابك عما أنا معتزم بعد هذه المأساة؟ فى الحق كنت أعمل من أجلها وكنت أجدّ فى سبيلها وكنت أحبس نفسى عن ملذات الحياة وأترك روحى بين يديها تكيفه كما تريد وتشاء ؛ واليوم ياصاحبى أصارحك فأنا عند خطتى الأولى ، سأجد وأجاهد من أجل سميرة أيضاً سأحاول أن أكون رجلا كاملا على الخصال التى يرضاها كل إنسان كريم ؛ سأحاول أن أكون مثلا طيباً بين زملائى وأترابى حتى تتلفت علىّ سميرة وتفرح إذ تشعر أن صديقها القديم لا يزال على ما انطبعت عليه نفسه من اليقظة وما اجتمعت عليه من الآمال الكبار وسوف تحزن سميرة إذا ما رأت صاحبها القديم وقد

Digitized by Birzeit University Library

تحققت آماله وأنها محرومة من المساهمة فى تلك الآمال ، ستتحسر على صاحبها الذى كان لها أطوع من خاتمها فى إصبعها ، ستحزن على صديقها الشاب الذى كان لها مراجا من الأبوة والأمومة والأخوة والجوار ؛ ستأسف على صديقها الذى ما طغت على حبه شهوة فى جسم أو مال ؛ ستندم على قلب اجتمعت عنده أحلى الأمانى وأعذب الآمال

ستقول إنى لا أزال أحبها وستعرض علىّ أنواع السلوى لألهو بها . لا ياصاحبى فلا السلوى تنفعنى ولا الحب أنساه ، ولقد عرض على الزملاء هنا ان أصحبهم فى مباهج مصر ما يعوضنى القلب الذى زل وراح ، بل أسرفوا فى عرضهم وتمنوا على ان أشرب قليلا من الخمر عزاء وسلوى ولكننى ضحكت منهم كما ضحكت من قسوة الزمن وها أنذا لا أزال أضحك . . .

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

PJ7805 B4H4 1944
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
A00012
A00012

Digitized by Birzeit University Library